



Dar An NAfaes

العَدْلُ فِرِيْضَةٌ إِسْلَامِيَّةٌ
وَالْحُرْبَةُ ضَرُورَةٌ إِنْسَانِيَّةٌ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

فَلَيُقَتَّلُ فِي سَبِيلِ اللهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ
الَّذِينَ كَانُوا لَا يَخْرُقُونَ وَمَن يُقَاتَلُ فِي سَبِيلِ اللهِ فَيُقَتَّلُ
أَوْ يَغْلِبَ فَسُوفَ تُؤْتَى هُنَّا أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٧٤﴾ وَمَا الْكُمْ لَا نُقْتَلُونَ
فِي سَبِيلِ اللهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ
الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا مَنْ هَذَا الْقَرْبَلَةُ الظَّالِمُ أَهْلُهَا
وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ وَلِيَا وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ نَصِيرًا ﴿٧٥﴾
الَّذِينَ ءامَنُوا يُقْتَلُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقْتَلُونَ فِي
سَبِيلِ الطَّغُوتِ فَقَتَلُوا أُولَئِكَ الشَّيْطَنَ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَنِ
كَانَ ضَعِيفًا ﴿٧٦﴾

صدق الله العظيم

[سورة النساء، الآيات ٧٤، ٧٥، ٧٦]

العَدْلُ فِرَاضَةٌ إِسْلَامِيَّةٌ وَالْحُكْمَ ضَرُورَةٌ إِنْسَانِيَّةٌ

متألف
Dar An Nafaes
لدر كسرأسعد السحراني

أَسْتَاذ فُلْسَفَةٍ فِي جَامِعَةِ بَكْرِيَّةِ الْمَرْبُوَّةِ
وَكُلِّيَّةِ الْإِمَامِ الْأَوْزَاعِيِّ لِلدِّرَاسَاتِ الْإِسْلَامِيَّةِ

حُكْمُ النَّهَائِسِ

جَمِيعُ الْحَقُوقِ مَحْفُوظَةٌ

Dar An NAfaes



للطباعة والنشر والتوزيع

شارع فرداں - بناية صفي الدين

ص.ب ١١٦٣٤٧ أو ١٤٥٢

برقیاً: دانفایسکو-ت ٨١٠١٩٤

أو ٨٦١٣٦٧ بيروت - لبنان

الطبعة الأولى : ١٤١١ - ١٩٩١ م

الإهْدَاء

إلى روح المرحوم أخي المحامي أحمد
وروح المرحوم ابن عمي الأستاذ محمود
اللذين استشهاداً مغدورين مظلومين
وإلى روح كل ^{مجاهد} من أمننا قضى دفاعاً مظلوماً

Dar An NAfaes

تقديم الناشر

إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ، وَالْإِحْسَانِ، وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىِ.
وَيَنْهَا عَنِ التَّعْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ، وَالْبَغْيِ، يَعِظُكُمْ لِعَلَّكُمْ
صَدِقُ اللَّهِ الْعَظِيمَ تَذَكَّرُونَ.

قضيتان كبريانا يتناولهما المؤلف، الباحث الإسلامي، في كتاب صغير، فجاء مكتفياً، مفيداً، مثيراً.

القضية الأولى: العدل، وفيها يبين أن في العدل «مصلحة» للحاكم قبل المحكوم، فـ«العدل يروم الملك»، وبالظلم يزول الحكم... والمحكومون. حتى أن الغزالى يقول: «الملك يبقى مع الكفر ولا يبقى مع الظلم»^(١). ولئن كان هذا واقع الحال في الدنيا، فالله عز وجل جعل الحاكم العادل من أكثر الناس ثواباً عنده، كما جعل الحاكم الظالم من أشدهم عقاباً، والعدل كما يبيّن المؤلف مطلوب في الحكم، والقضاء، وعلى كل المستويات ليصل إلى الرجل بين زوجاته، والوالد بين أبنائه، والمدرس بين تلاميذه.. إن أحب الإنسان أو أبغضه.

(١) الغزالى: التبر المسبوك في نصيحة الملوك، ص ٤٤. وقال: إنه حديث شريف.

ولهذا نجد عمر بن الخطاب يقول لقاتل أخيه: «والله لا أحبك حتى تحب الأرض الدم»، فيجيبه الرجل: «أفمتعني حقاً». فيقول عمر: «لا». فيقول الرجل: «إنما يأسف على الحب النساء»^(٢).

وأما القضية الثانية: فهي الحرية، وكأني بالمؤلف يستذكر صرخة عمر بن الخطاب: «متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً؟»، تلك الصرخة التي أطلقها حاكم عادل في وجه والٍ مخطيء، في لحظة غضب، انتصاراً لانتهاك حرمة مواطن «غير مسلم»، فما زالت منذ أربعة عشر قرناً تدوي في آذان الطاغة، ترهبهم وتقض مضاجعهم، وشعاراً يرفعه أحرار العالم في وجه الظالمين.

Dar An NAfaes

والدراسة ليست دراسة علمية معتمدة أو موسعة لمفهوم الحرية وحدودها، كما يقول المؤلف ذاته، بل هي أقرب إلى صرخة غضب صادرة عن عربي مسلم مثقف، ينوء تحت رجس فقدان الحرية في كثير من بلاد العرب والمسلمين، السبب الرئيس لتأخرهم، وتقدم غيرهم.

والحرية قضية شائكة يفصل بينها وبين ضدها خيط رفيع

(٢) وردت القصة بالفاظ مختلفة في العقد الفريد، لابن عبد ربه، تحقيق العريان، ج ٤، ص ١٠٢. وفي عيون الأخبار، ج ٣، ص ٦٠، وفي الكامل للمبرد، ج ٢، ص ١٩٥.

يصعب تمييزه. ولذلك لا بد من وضوح مفهومها والحدود التي يجب أن تقف عندها الحرية، بل الحريات، والتي أقلها حدود حريات الآخرين أفراداً وجماعات.

والمهم في الموضوع ألا يكون الشعب قابلاً للاستعباد، وألا يحاول حاكم باسم الحرية أو تنظيمها، استعباد شعبه، فيخدم بذلك أعداءه، ربما عن غير إدراك منه لخطورة عمله. فليس من خدمة تقدم للعدو أكثر فائدة من تحويل الشعب إلى عبيد.. ونعاجم، يعيشون على هامش الحياة، ولا يشعرون بأهميتهم في وطنهم أو اتتمائهم له، لأنهم فقدوا حريتهم فيه.. «فياما» قتل باسم الحرية أبطال، وسجن أحرار، وشرد مواطنون، في مختلف بقاع الأرض.

Dar An NAfaes

نَسْأَلُ اللَّهَ أَنْ يَنْفَعَ بِهَذَا الْكِتَابِ، فَهُوَ الْمَوْلَى وَهُوَ النَّصِيرُ،
وَعَلَيْهِ الْإِنْكَالُ.

أحمد راتب عمروش

Dar An NAfaes

توضیح

إن الكتب التي تنشرها الدار تُعبر عن آراء مؤلفيها، ولا تعني
تبني الدار لما جاء فيها أو مسؤوليتها عنها بأي شكل من الأشكال.

مقدمة

طرح مشكلة الحرية نفسها في واجهة المشكلات المعاصرة، لأن المؤثرات السلبية للفكر الأوروبي المادي الطابع والمنهج تركت بصماتها، فازداد بسبب ذلك الاهتمام بالكم على حساب الكيف، وبما هو مادي على حساب ما هو روحي ومعنوي، فكان لذلك مردودات سيئة على واقع الإنسان ومستقبله.

الإنسان المستخلف في الأرض، والذي أعطاه الله التكريم، عانى معاناة صعبة بتأثير مدنية أوروبا، حيث كانت ثورة التصنيع، ومساعي غزو الفضاء، ومحاولات تطوير الأسلحة على حساب سعادته.

لقد حولوا الإنسان عبداً للآلات والأرقام، وتعاملوا معه بقسوة، وحملوه فوق طاقته، ولم يقيموا وزناً لإنسانيته، ولا لمكانته، فقدموا ما هو مادي على ما هو اجتماعي وإنساني، مما

أدى إلى تدهور القيم، وفساد الأخلاق، وانتشار الرذيلة والانحراف.

واقترن بهذه القسوة مكيافيللية سياسية تقوم على مبدأ «الغاية تبرر الواسطة»، وتتلذذ الحكام في مدارس الاستبداد والظلم، وأنقذوا فنون قمع الحريات، ودوس الكرامات، وسلب الأرزاق، فباتت الْحرمات غير مرعية، واستباح المستبدون كل شيء من أجل أن يرضوا شهوتهم إلى التسلط والسلطة.

إن الحرية من الأمور النادرة، والعدالة مفقودة عند قبيل من الحكام الذين ظنوا واهمين بأن القمع والاستبداد يطيلان في عمر حكمهم، علمًاً أنه لا أساس لملك أفضل من العدل، ولا محابة لحاكم من قبل أبناء شعبه إن لم يصرخ بالاعتراض عن آمالهم وألامهم.

تجارب نووية، سباق تسلح، غزو فضاء، إفراط في التصنيع، ومزيد من التفريط بالثروات بكل أنواعها، جشع ونهم، سادية أين منها سادية نيرون يوم أحرق روما! ..

في غمرة عصر هذه سمتة عاش جيلنا ليعرف أسوأ مظاهر القسوة والظلم، وليشهد مأساة أمم وشعوب يتآمر عليها حكامها بالتعاون مع المستعمر، مما عطل الطاقات، وأذهب الجهود هدراً، وكثير خريجو مدرسة قabil الذي بسط يده لقتل هابيل، ناسياً أن الإنسان بنيان الله ملعون منْ هدمه.

آلمتني مظاهر الاستبداد والقسوة، وحفزتني أساليب القمع والسلط، وأشارتني اللعبة الدولية على حساب الشعوب التي استضعفوها، فوجدت نفسي مدفوعاً لكتابية هذه السطور في هذا الكتيب، وهذه السطور في الحقيقة تعبر عن مشاعر وأفكار تدغدغ الذهن.

حرّكتني عبارة عنترة: «إن العبد يحسن الحلب والصر ولا يحسن الكرا»، فأردت أن اطلق هذه الصيحة - الكتيب - مؤكداً على أهمية العدل والحرية، ومبيناً مخاطر الظلم والاستبداد، ومشيراً إلى أن أمّة مثل أمّتنا تتعرّض للتمزيق والاستعمار، ومنها جزءٌ مغتصب لا بل أجزاء من قبل الصهاينة، لا يمكنها أن تتحرّر وتتوحد وتنهض بجهود عبده يحسّنون الحلب والصر، وإنما تحتاج إلى أحرار آمنوا بالله، فانطلقو إلى الجهاد في سبيله حق الجهاد دون تردد أو حساب، ودفعوا النفس رخيصة وهم يعلمون بأن المستعمر والمستبد لا يكفان عن أساليبهما إلاّ عندما يجدان على وسط المظلوم والمستعمّر سيفاً جهزه للإجهاز عليهم وعلى مشروعاتهم.

من أجل المقاومة سعيًّا للتحرّر والمستقبل أفضل، ولكي نوقف الاستبداد والغدر والظلم، لا بد من أن نتدافع إلى الساحات شاهرين السيف، لندافع عن المؤذين والمستضعفين لنعيد الاعتبار للإنسان المستخلف في الأرض من قبل الله تعالى، حيث لا إنسانية بلا حرية وعدالة.

إنها محاولة لولوج ميدان موضوع شائك يحتاج إلى دقة وتمحيص أردها مرضاة الله تعالى وتعبيرًا عما يجول في الوجدان والفكر، فأرجو الله عز وجل أن أكون قد وفقت في إيصال ما أريد للقارئ العربي.

والله الموفق والغالب على أمره
﴿ولا يزيد الظالمين إلا خساراً﴾

عكار - لبنان الشمالي
في ٨ صفر ١٤١١ هـ
الموافق فيه ٢٩ آب ١٩٩٠ م
أسعد السحمراني

Dar An NAfaes

تَمْهِيد

ضرب الله تعالى المثل للناس عن مخاطر الاعتداء على حقوق الآخرين، بذلك الاعتداء الأول الذي قام به أحد ابني آدم عليه السلام «قابيل»، عندما أراد أن يوقف السنة التي جرت على التوأم من أبناء آدم عليهما السلام لأن يتزوج ^{الذكر} من توأم الأنثى من التوأم الذي يليه في الولادة، والذكر من التوأم الثاني يتزوج بالأنثى من التوأم السابق عليه، وكان أن اعترض قابيل ضمّناً لتفاوت في الجمال بين الأنثى التي ولدت معه، وبين تلك المولودة مع «هابيل».

وسارت فصول القصة في المنحى نفسه من الاعتداء عندما ظهر حرص قابيل على ^{ألا} يصدق بالأجود مما عنده بعكس هابيل، فكان الدرس، وأعطيت العبرة للمعتدين على الحقوق المقصرين في الواجبات على امتداد التاريخ، وتقلب أدوار الزمن بأن تقبل الله تعالى القربان من هابيل ولم يتقبله من قابيل.

جاء الخطاب الإلهي يخبر بهذه القصة بياناً لمخاطر

العدوان والاعتداء على حرمات الآخرين وحقوقهم، وتنبيهاً للمتقين بأن يتجنباً وساوس الشيطان، فيمتنعوا عن تلك التزعة العدوانية التي سنّها «قابيل»؛ قال الله تعالى:

﴿وَاتُّلْ عَلَيْهِمْ نَبَأَ أَبْنَى آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَبَا قَرْبَانًا فَتَقْبَلَ مِنْ أَحْدَهُمَا وَلَمْ يَتَقْبَلْ مِنَ الْآخَرِ قَالَ لِأَقْتَلْنِكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقْبَلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَقْبِلِينَ * لَئِنْ بَسْطَتِ إِلَيَّ يَدُكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسْطِ يَدِي إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ * إِنِّي أَرِيدُ أَنْ تَبُوَا بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونُ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ، وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ * فَطَوَّعْتَ لِهِ نَفْسَهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾^(١).

وسوس الشيطان لقابيل وأراد الله تعالى أن يردعه عن ظلمه، ويرده إلى الطريق القويم فأعطاه العبرة عندما لم يتقبل منه قربانه، فاستمر في عدوانيه على حق أخيه بتهدیده له بالقتل، وبادره الأخ بعدم التجاوب للقيام بمثل هذا الفعل الشنيع، الذي يغضب الله تعالى، ويخالف هديه سبحانه، لكنه سفك دم أخيه مكملاً فصول جريمة ذهب فيها «هابيل» مظلوماً، لكن فائزًا برضوان الله تعالى، و«قابيل» كان له الخسران المبين، ولم يطل به الزمن كي يعلم مخاطر عمله، ويتعرف على نتائج فعلته الشنيعة.

فجاءه الدرس من خلال مخلوق ليس من عدادبني آدم المستخلفين في الأرض، وإنما من خلال طائر لا عقل له، بل تحركه الغريزة، هو الغراب. ففي قول الله تعالى: ﴿فَبَعَثَ اللَّهُ

(١) سورة المائدة، الآيات: ٢٧، ٢٨، ٢٩، ٣٠.

غراباً يبحث في الأرض ليريه كيف يواري سوءة أخيه قال يا
ويلتي أعجزت أن أكون مثل هذا الغراب فأواري سوءة أخي
فأصبح من النادمين^(١).

إنَّ عصمنا اليوم عرف أساليب من الظلم والاعتداء على
الحرمات والحقوق في كل بقاع الأرض، وعرف طغاة ومستبدون
وظالمين تخرجوا من مدرسة «قابيل» ذلك الظالم الأول، فهل
لهم أن يتعلموا منه فيصبحوا نادمين على ما يفعلون حين يقرأون
في قصة ابني آدم، أن الغراب كان أحقر على أخيه وستر
سوءته من «قابيل»؟.

إذا كانوا يريدون الاستفادة من القصة القرآنية عن ابني آدم
فيجب أن تسود في الأرض سنة «هابيل»، الذي لم تسُول له نفسه
قتل أخيه لأنَّه من المتقين، الذين يعرفون أنَّ الله تعالى قد أعلم
الناس بأنَّ ابن آدم مكرم ومستخلف في الأرض، فلا يجوز هدر
كرامته، وأنَّ لكل إنسان حقوقاً وحرمات لا يجوز هتكها، بل من
واجب الإنسان حاكماً كان أم محاكوماً، ورئيساً أم مرؤوساً، أن
يحافظ على حرمات سواه، وأنَّ يستر سوءاتهم لا أنْ يهتكها،
على الأقل ليكون فعله بمستوى فعل الغراب الذي بعثه الله تعالى
معلماً «لقابيل» قاتل أخيه.

إنَّ الظلم والإجرام والاعتداء على حدود الله وحدود الناس
الذي يمارس في عصمنا اليوم، بالقتل المادي أو المعنوي، هو

(١) سورة المائدة، الآية: ٣١.

في جوهره فعل يهدّد كل البشر، أممًا وجماعات وأفراداً، ولن يسلم من شرّ هذا الفعل أحد، وبذلك عقب الله تعالى على الآيات التي حملت «نَبِأَ ابْنِ آدَمَ»، بأية كريمة كان الخطاب فيها لبني إسرائيل الذين مارسوا في غالبيهم سنة «قَابِيل»، ولم يكونوا من المتقين متبعي سنة «هَابِيل». قال الله تعالى : ﴿مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٌ فِي الْأَرْضِ فَكَانُوا قَاتِلِي النَّاسِ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَانَمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا﴾^(١).

النفس وديعة إلهية لها حرمتها، ولها أجلاها الذي حدّده الله تعالى ، لذلك فإن العداون عليها مسألة خطيرة، وقتلها جريمة تهدّد كيان المجتمع البشري ، لأن القتل فعل شيطاني يقود إلى مزيد من القتل وسعك الدماء وندحرم الله ذلك ، وقتل نفس واحدة يفتح الطريق لقتل أنفس عديدة ، وبال مقابل فإن رعاية نفس ، والحفظ عليها ، وتحقيق صلاحها ، يحقق سنة صالحة تؤدي إلى إحياء كافة الأنفس وصلاحها .

الإنسان الذي أودعته فيه النفس وطلب منه تحقيق تركيتها ليفلح في الآخرة والدنيا ، هو المخلوق الذي جعله الله تعالى خليفة في الأرض ، والذي علّمه الأسماء كلّها بما منحه من نعمة العقل ، وبيعثه الأنبياء والرسل صلوات الله عليهم ، وكان من نعمة الله على ابن آدم الذي استخلفه في الأرض ، وسخر له ما سخر

(١) سورة المائدة، الآية : ٣٢ .

ورزقه من الطيّبات، أن جعل له تكريماً يخصه لآدميته بقرار من الله في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بْنِ آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ خَلْقِنَا تَفْضِيلًا﴾^(١).

فالتكريم للإنسان حيث أعطي السلطان على غيره من المخلوقات كما سخر له الله سائر المخلوقات، ويقول القرطبي في تفسيره لهذه الآية: «كَرَّمْنَا تَضْعِيفَ كَرَمٍ، أَيْ جَعَلْنَا لَهُمْ كَرَمًا أَيْ شَرْفًا وَفَضْلًا». وهذا هو كرم نفي النقصان لا كرم المال. وهذه الكرامة يدخل فيها خلقهم على هذه الهيئة في امتداد القامة وحسن الصورة، وحملهم في البر والبحر مما لا يصح لحيوان سوى بني آدم أن يكون يتحمل بإرادته وقصده وتدبيره.

وتخصيصهم بما خصهم به من المطاعم والمشراب والملابس، وهذا لا يتسع فيه حيوان اتساع بني آدم، لأنهم يكسبون المال خاصة دون الحيوان، ويلبسون الثياب، ويأكلون المركبات من الأطعمة، وقيل بالكلام والخط، وقيل بالفهم والتمييز.

والصحيح الذي يعول عليه أن التفضيل إنما كان بالعقل الذي هو عمدة التكليف، وبه يُعرف الله ويُفهَم كلامه، ويُوصل إلى نعيمه وتصديق رسالته، إِلَّا أنه لما لم ينهض بكل المراد من العبد بعثت الرسل وأنزلت الكتب.

(١) سورة الاسراء، الآية: ٧٠

فمثال الشرع الشمس، ومثال العقل العين، فإذا فتحت وكانت سليمة رأت الشمس وأدركت تفاصيل الأشياء^(١).

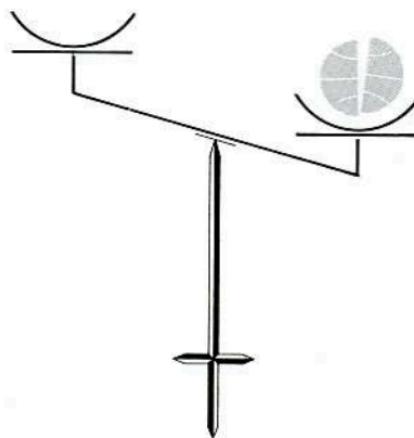
بعد هذا التعداد لا بد أنه اتضح فعلاً، أن التكريم كان في مسائل كثيرة من الخلقة إلى الرزق والطبيات، فسخير المخلوقات الأخرى، إلى نعمة العقل والفهم والنطق، انتهاء بالتلطف بإرسال الرسل والأنبياء وإنزال الكتب، كل هذا فيض من الرحمة الإلهية، يجب أن تترك للإنسان فرصة التنعم بها، فبأي حق يقوم خريجو مدرسة «قابيل» في غير زمان ومكان بقهر الإنسان، وحرمانه من كرامة كانت له من الخالق عزّ وجلّ؟!..

وأخذ العداون والقهر وجوهاً متعددة، فقد يكون بالاعتداء على جسد الإنسان أو نفسه بالتعذيب والإهانة، أو بالإذلال والاحتقار والاسترقاق والاستعباد، وقد يكون ذلك بالحرمان من حق التحصيل للرزق أو العلم أو المعرفة، أو من حق العيش الكريم فوق حدود وضوابط ما شرعه الله تعالى، حيث قد يتسلط حكام ونافذون على كرامات الناس ومقدراتهم ولا يرعون حرمة ولا ذمة، متبعين أهواءهم وشهواتهم مما يهدى الكيان الإنساني بأسره، ولذلك يكون من قتل نفس مادياً أو معنوياً بغير وضع للحدود وقصاص وفق الشرع الحنيف كأنه قتل الناس جميعاً.

(١) القرطي، الجامع لأحكام القرآن، ج ١٠، القاهرة، مطبعة دار الكتب، ١٩٦٢ م، ص ٢٩٣، ٢٩٤.

العدل فريضة وضرورة

Dar An NAfaes



العدل فريضة وضرورة

إن الله سبحانه وتعالى عادل مع عباده في تكليفهم حيث يطلب من كل فرد منهم من الواجبات ما يستطيعه، ويعطيه من الحقوق ما يستحقه. وعادل معهم سبحانه في المحاسبة حيث كتب على نفسه عز وجل، أن لا يعذب المسيء على إساءته إلا بعد تبليغه، وبالتالي فالتكليف للعباد كان بعد بعثة الرسل صلوات الله عليهم ﴿وَمَا كنَا معاذِين حتى نبعث رَسُولًا﴾^(١)، وما ذلك إلا كي لا يكون لهم حجة يتذرعون بها، كما أنه سبحانه رفع عنهم القلم إذا ما فقدوا نعمة العقل التي بها يتدبرون شرع الله تعالى، ورفع عنهم القلم إذا ما كانوا حديثي السن دون الرشد والبلوغ، ورفع عنهم القلم إذا كانوا في نومهم، لأن الأنفس تموت عند منامها، وفي هذه الحالة لا يدرك المرء بماذا يتلفظ.

(١) سورة الإسراء، الآية: ١٥.

يضاف إلى ذلك أن التكليف المرتبط بالشرع والعقل يكون لكل واحد من عباد الله تعالى يقدر ما يتحمل ويطيق ﴿لَا يكلف الله نفساً إلا وسعها﴾^(١)، فللمريض والعاجز رخصة الإفطار في شهر رمضان، لأن الله سبحانه يريد لنا اليسر، وللمسافر رخصة القصر في صلاته، وكذلك رخصة الإفطار، وفي رخصة الحج إلى بيت الله الحرام هي على المستطاع دون سواه.

لذلك نرى التكاليف والفرائض جاءت تراعي قدرة الإنسان وحالته وقدراته، فللمريض أن يصلّي قاعداً أو مضطجعاً حسب ما يحتمل وضعه الصحي ، ولمن فقد الماء، أو كان الماء يشكل له ضرراً صحياً أن يتيمم صعيداً طيباً، وللخائف أو من كان في دار حرب لا يصلّي الجمعة في المسجد الجامع، ولمن ارتكب خطأ في أمر إذا أراد أن يتوب، أو يصلح ، نظام كفارات تتبع حسب الخطأ وفق استطاعته . . . إلخ.

﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ﴾^(٢) هذا الأمر كما يلاحظ عام مطلق لأن سنن الكون كلها أقامها الله تعالى على العدل، والتکاليف والفرائض قامت على نظام العدل، وعلاقة الناس بخالقهم سبحانه وبينهم يجب أن تقوم على أساس العدالة. يقول الراغب الأصفهاني : «العدالة والمعادلة لفظ يقتضي

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٨٦.

(٢) سورة النحل، الآية: ٩٠.

معنى المساواة.. لكن العدل يستعمل فيما يدرك بالبصرة
كالأحكام.

وعلى هذا روى : بالعدل قامت السموات والأرض تنبئهاً أنه
لو كان ركن من الأركان في العالم زائداً على الآخر أو ناقصاً عنه
على مقتضى الحكمة لم يكن العالم منتظاماً.

والعدل ضربان : مطلق يقتضي العقل وحسنه ، ولا يكون في
شيء من الأزمنة منسوخاً ، ولا يوصف بالاعتداء بوجه نحو
الإحسان إلى من أحسن إليك ، وكف الأذية عنمن كف أذاه عنك .
وعدل يعرفه كونه عدلاً بالشرع ، ويمكن أن يكون منسوخاً في
بعض الأزمنة ، كالقصاص وأروش الجنایات . (إن الله يأمر
بالعدل والإحسان) ، فإن العدل هو المساواة في المكافأة إن
خيراً فخير وإن شرًا فشر ، والإحسان أن يُقابل الخير بأكثر منه
والشر بأقل منه)^(١).

إن العدل، إذاً، أمر إلهي ، وقاعدة سنّها الله تعالى في الخلق
تكتويناً، وللخلق تشريعاً، ولقد مقت الله تعالى الظلم، ومنعه عن
نفسه، وبذلك فهو حكماً ممنوع بين العباد. ففي الحديث
القديسي : (إن الله حرم الظلم على نفسه وجعله بينكم محراً ماً فلا
تظلموا)^(٢). وما تحريم الظلم إلا لأنه ظلمات تهدّد كيان

(١) الراغب الأصفهاني ، المفردات في غريب القرآن ، تحقيق محمد سيد
كيلاني ، القاهرة ، سنة ١٣٨١ هـ - ١٩٦١ م ، ص ٣٢٥ .

(٢) رواه مسلم .

المجتمع ووحدته، والظلم باب للتفرقة والانقسام بين أبناء الجماعة الواحدة، كما أنه تحميل للإنسان أكثر مما يطيق.

كان من مآثر العرب قبل الإسلام الأنفة وطلب العزة، فجاء الإسلام وعزز هذا المفهوم، ولذلك تناقل العرب في الأثر مقوله: «العدل إن دام عمر والظلم إن دام دمر».

وإذا كان حب العدل سجية في العرب، قبل الإسلام، فلقد جاء الإسلام وحول الأمر إلى واجب أمر به الله تعالى - ولا يخالف أمر الله إلا العصاة - من ذلك الآية الكريمة: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَامِينَ لِلَّهِ شَهِداءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمُنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَا تَعْدِلُوا إِذَا لَمْ يَأْتِ بِالْحُكْمِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾^(١)

Dar An NAfaes

معنى القسط المطلوب من المؤمنين أن يكونوا قوامين به هو النصيب بالعدل، لذلك قيل عند العرب: «أقسط الرجل: عدل». وهذا المعنى أكدته الآية الكريمة: ﴿وَأَقْسَطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾^(٢)، ويقال في لغة العرب: «قسط الرجل: جار وظلم غيره»، وهذا ما جاء في الآية الكريمة: ﴿وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا﴾^(٣).

(١) سورة المائدة، الآية: ٨.

(٢) سورة الحجرات، الآية: ٩.

(٣) سورة الجن، الآية: ١٥.

وفي باب الترغيب للمقسطين الذين يعدلون مع إخوانهم وبينهم، ويعدولون مع أنفسهم، كان الحديث النبوى الشريف: (إِنَّ الْمُقْسُطِينَ عِنْدَ اللَّهِ عَلَىٰ مَنَابِرَ مِنْ نُورٍ عَنْ يَمِينِ الرَّحْمَنِ، وَكَلَّا يَدِيهِ يَمِينٌ، الَّذِينَ يَعْدِلُونَ فِي حُكْمِهِمْ، وَأَهْلِهِمْ، وَمَا وُلُوا) ^(١).

إن العدل فريضة على المؤمن تجعله تقىًّا، وتجلب له ثواب الله تعالى ومرضاته، والأنقياء عليهم القيام بواجب إظهار الحق وتأييده ونصرته مهما كلف ذلك، وهذا يستلزم منهم اعتماد العدل دون ميل أو هوى لقريب أو عزيز. وإذا كان الفيلسوف اليوناني أرسطو قد قال: «إننا نحب أفلاطون ونحب الحقيقة وإذا اختلفنا فإننا مع الحقيقة وليسنا مع أفلاطون» - أفلاطون كان أستاذ أرسطو لمدة طويلة -، فالآخر بالمؤمن الذي يتلزم أمر الله تعالى أن يؤيد الحق، ويخاصم الباطل وأهله مهما كانت درجة قربة من يحكم بينهم، لأن المؤمن الحق لا يهمه سوى تقوى الله، وسبيل ذلك العدل. وإذا كان أحد أطراف الموضوع خصماً، وحتى عدواً مبغضاً، فإن ذلك لا يغير من الأمر شيئاً، وبالتالي يبقى الواجب التمسك بالعدل، ولا يدفع بغض أو خصومة مؤمناً إلى ترك العدل وإيثار العدوان على الحق، بل يبقى الحق هو الحكم.

إن كتم الحق، ومحاباة الظالم أمر مرفوض مهما تكن

(١) رواه مسلم والنسائي.

الظروف، في هذا الباب جاء التحذير الإلهي : «**وَلَا تُلْبِسُوا**
الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ»^(١).

«**إِعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ**»، هذا الأمر يعلمنا بأن الميل في العدل، بسبب الغضب أو عاطفة القرابة، أو بسبب الخشية من إنسان ما، أو التوّدّد إلى ضعيف، يجب أن يبعد تماماً من دائرة العدل عند مباشرته. وصمام الأمان في إبعاده تذكر الله، واستحضار جلاله في القوامة على الناس والحكم فيما بينهم.

وإذا كانت هذه هي صورة العدل المطلوب في سياسة الإسلام حسبما جاء في كتاب الله، فإن آثار العدل و مباشرته في الحكم على نحو هذه الصورة توفر حتماً: صيانة الأعراض من الاعتداء عليها، وصيانة النقوس من الانضمام والتعدّب، ومن تتبع الخصوصيات لها ومراقبتها، وعدم التفرقة في فرص المعيشة وتولي الوظائف العامة»^(٢).

العدل سُنة الله تعالى في خلقه، وحب العدل يوافق فطرة الله التي فطر عليها الناس، وتطبيق النظم العادلة يتاسب مع تكريم

(١) سورة البقرة، الآية: ٤٢.

(٢) البهي، د. محمد، حقوق الإنسان في القرآن في صلة الفرد بالجماعة؛ في: حقوق الإنسان في الإسلام ورعايتها للقيم الإنسانية، أعمال المؤتمر السادس لمجمع البحوث الإسلامية، القاهرة، الشركة المصرية للطباعة والنشر، سنة ١٣٩١ هـ - ١٩٧١ م، ص ٦٥.

الله تعالى للإنسان المستخلف في الأرض، لأن العدل يتحقق له عزّته وكرامته، ويحفظ له شخصيته الأدمية محرّرة من العبودية لبشر أو حجر أو هوى، إن العبودية لا تكون إلا لله رب العالمين، والعبودية لله وتقواه تعلم العابد الإذعان لله تعالى والخضوع، والتمرد على كافة أشكال التسلط البشري، لذلك نرى المستبدین يخافون أن يعرف مرؤوسيهم الحكمة من إعلان الإيمان بالله الواحد سبحانه فيزعجهم قول: لا إله إلا الله، مع تدبر مدلوّل التوحيد هذا.

إن النصوص القرآنية جاءت لتصحّح مفاهيم الحاكم المستبد، وتعلّمه بأن رئاسته على الناسأمانة، فعليه أن يقوم بحقها خير قيام، والأكانت له خزيًّا وندامة ساعة لا ينفع الندم.

جاء النص القرآني في ذلك بيناً محكماً: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَؤْدُوا الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نَعَمًا يَعْظِمُكُمْ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾^(١)، وما جاء في هذه الآية من أمر بالعدل ليس خاصاً بفئة أو جماعة، وليس المقصود به شخصاً في موقع المسؤولية فحسب، وإنما هو أمر عام لكل من ولّ أمراً بأنه من واجبه أن يعلم بأن ما بين يديه هوأمانة، فعليه رعايتها وتأديتها حقها بعدل، مع التذكّر أن الله سبحانه علیم شاهد على ما يفعل المرء، وإذا ما نجا غير العادل

. (١) سورة النساء، الآية: ٥٨.

والمفترط بالأمانات من عقاب دنيوي فإن العقاب الآخروي مدركه لا محالة.

وقد ذهب القرطبي هذا المذهب في تفسيره للأية الآنفة الذكر فقال: «الأظهر في الآية أنها عامة في جميع الناس فهي تتناول الولاة فيما إليهم من الأمانات في قسمة الأموال ورد الظلامات والعدل في الحكومات... وتتناول من دونهم من الناس في حفظ الودائع والتحرّي في الشهادات وغير ذلك، كالرجل يحكم في نازلة ما ونحوه»^(١).

نستطيع القول إنَّ هذه الآية ترسم الخط العام للمسؤولية الملقة على عاتق من يتولاها مهما كانت درجة المسؤولية، والإنسان محاسب انتلاقاً من درجة مسؤوليته، ومبدأ ما ذهب إليه الحديث الشريف: (كلكم راعٍ وكلكم مسؤول عن رعيته، فالإمام راعٍ وهو مسؤول عن رعيته، والرجل راعٍ على أهله وهو مسؤول عنهم، والمرأة راعية على بيت زوجها وهي مسؤولة عنه)^(٢).

لقد رغب الله تعالى ورسوله ﷺ بالعدل، وجاءت آيات قرآنية عدّة، وأحاديث نبوية كلها تظهر فضائل العدل وأهميته، وتُنفر من الظلم وتنهى عنه، كل ذلك ضمن إطار المسؤولية

(١) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج ٥، م. س، ص ٢٥٦.

(٢) رواه البخاري ومسلم.

العامة للمرء عما تحت يده، من هذا القبيل نذكر الحديث الشريف: (ثلاثة لا ترد دعوتهن: الصائم حتى يفطر، والإمام العادل، ودعوة المظلوم يرفعها الله فوق الغمام، ويفتح لها أبواب السماء، ويقول الرب: وعزّتي لأنصرتك، ولو بعد حين) ^(١).

العدل أمر عام جاء للرسول ﷺ وهو ماضٍ في الأمم، لأنه التعبير عن الاستقامة المطلوبة، والبعد عن الأهواء التي تلعب الدور في الرزغ عن الحق، وهذا العدل قائم ولو كان طرف من طرفي الأمر ذا قربى، أو أنه من المسلمين والآخر من أهل الكتاب، أو المستأمنين في دار الإسلام، وهذا العدل فريضة إلهية حدد لها الشرع ضوابطها؛ أي أن مرد القرار العادل هو الأحكام والشرع، وليس النفس أو المزاج أو الرأي الخاص، وعلى الإنسان أن يتذكر بأن الله تعالى سيحاسبه على كل صغيرة وكبيرة، وفي المحصلة كل امرئ سيحاسب على ما كسبت يداه، لذلك ليس الواحد مضطراً لأن يلقى بنفسه إلى التهلكة مجاملة لأحد، بل الواجب الشرعي يقضي بأن يقول الحق ولو على نفسه.

إن الحكم بالعدل يحقق الاستقامة، ويعن التشويش والاحتجاجات، ويعطي لصاحب القرار العادل قدرة على مواجهة كل من طلب امتيازاً أو تجاوزاً على حساب الحق مراعاة

(١) رواه أحمد والترمذى وابن ماجه وابن خزيمة وابن حبان.

لمصالحه، وفي النهاية كل إنسان سيلقى جزاء ما كسبت يداه، وإن اعترض معترض على المسؤول العادل وخاصمه فإنه، وبكل ثقة، يفوض الأمر لله تعالى الذي سيحكم في اليوم الآخر بين الناس، وفي الدنيا حدد في الشرع الحنيف القواعد والأحكام وهي الحكم بين الجميع.

وللتذكرة في هذا الباب هذه الآية الكريمة: ﴿فَلَذِكْرُ فَادْعُ
وَاسْتَقْمِ كَمَا أُمِرْتَ وَلَا تَتَّبَعْ أَهْوَاءَهُمْ وَقُلْ آمَنْتُ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ
كِتَابٍ وَأَمْرَتُ لِأَعْدَلَ بَيْنَكُمْ إِنَّ اللَّهَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ
أَعْمَالُكُمْ لَا حَجَةٌ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ بِمَا يَصِيرُ﴾^(١).

بهذا المفهوم حدد الإسلام العدل فرضاً وضرورة، وكما ذكرنا كان مفتاح العدل بِإِيمَانِهِ وَبِطَهْرَةِ عِبَادِهِ من فرائض عبادات، حيث جاء طلب الالتزام بها يراعي قدرات الأفراد واستطاعتهم، وحيال هذا الأمر ماذا سيقول من يتولون الحكم بين الناس أو المسؤولة عليهم فيكلفوهم فوق طاقتهم وأكثر مما يستطيعون؟! ..

إنَّ من عرف أهمية العدل وضرورته لا بد من واجبه أن يتذكر صيحة الإمام علي كرم الله وجهه الذي قال: «والله لأن أبىت على حسک السعدان مسهدًا، أو أجرًا في الأغلال مصفدًا، أحب إلى

(١) سورة الشورى، الآية: ١٥.

من أن ألقى الله ورسوله يوم القيمة ظالماً لبعض العباد، وغاصباً
شيء من الحطام»^(١).

قديماً مارس الجاهليون سلوكاً لا إنسانياً يوم كانوا يحزنون إن ولدت المرأة أثني ، وكانوا يعدونها سبباً لجلب العار، انطلاقاً من شريعة الإغارة والقتال بينهم ، أو يعتبرونها رمزاً للخطيئة ، انطلاقاً مما ألحقه بالمرأة من حرقوا الحقيقة وعدوا حواء مصدر غواية في الجنة لأدم .

اسودت وجوههم حين بُشّروا بالأئتي فدسوها في التراب حيّة، وسمّي فعلهم وأدّاً، وذكّرنا ذلك بالظلم الأول الذي مارسه قابيل ضد أخيه هابيل ، وفي حق هؤلاء المعترضين على سنة الله تعالى في خلق الذكر والأثورة ، الذين كانوا يئدون الناس جمِيعاً بقتلهم نفس فتاة وأدّا دون وجه حق ، كان الإنكار لفعلهم في قول الله تعالى : «وإذا المؤدة سُلت * بأي ذنب قُلت»^(٢) .

إنَّ هذه الآية تستنكر فعل الجاهلين في وأد الأنثى حين تضعها أمها ، لكن هذا الاستنكار يبقى صرخة ووعيداً لكل طاغية معترض على عدل الله ، مخالف لقانون العدالة فريضة وضرورة ،

(١) ابن أبي طالب، الإمام علي، نهج البلاغة، ضبط د. صبحي الصالح، بيروت، دار الكتاب اللبناني، ط١، سنة ١٩٨٠، ص ٣٤٦.

(٢) سورة التكوير، الآية: ٨، ٩.

وتملاً هذه الصرخة أذن الناس على امتداد الأزمنة منكرة كل ظلم، وكل فعل لا إنساني يُقتل بسيه بعض الناس.

وإذا كانت المؤودة قد قُتلت مرّة لأنها أنشى وأنوثتها كانت السبب في ظلم أهلها لها، فإن من أنواع القتل ما هو أشد وقعاً من الوأد. فالتجويع قتل، ومنع الإنسان من ممارسة حرية الفكرية قتل معنوي، أين منه وأد الجاهلية، وتشويه سمعة المرء بالتهم قتل، وحرمان الإنسان من حق التعلم قتل، وعدم توفير الخدمات للإنسان قتل . . . إلخ. وغداً سيسأل المؤودون عن الذنب الذي قُتلوا من أجله وعندها يكون الجواب: طالبنا بحقنا فقتلنا، أو رفضنا الظلم فقتلنا، أو طالبنا بالعدل فقتلنا، يومها سيعلم الظالمون الوائدون أي منقلب سوف ينقلبون.

Dar An Nafaes

الظلم عصيان والاستبداد جريمة

إنَّ العدل قرين الفطرة البشرية، وهو عنوان الكرامة الإنسانية، أمَّا الظلم والبغى فإنَّهما يتعارضان مع فطرة البشر وتطلعهم نحو حرية لا تستقيم حياتهم بدونها، لذا نرى الإنسان لا بل حتى الطائر ينشد حرية *Dar Al Nafas* وقائلًا سمعنا أو انتهاص لحريته، لكن سكوتاً مقترباً بالتحضير من أجل تحطيم القيود، هو سكوت أشبه ما يكون بالانحناء أمام عاصفة هوجاء.

لقد توعَّد الله تعالى الظالمين في آيات قرآنية عديدة بسوء العقاب، لأنَّ الظلم الذي حرمَه الله تعالى على نفسه لم يسمح به لأحد، ولذلك نهى سبحانه عن التظلم، وبذلك يكون الظلم خروجاً على أوامر الله، وهو عصيان يستحق صاحبه العقاب.

من هذه الآيات: ﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظالِمِينَ﴾^(١)، ﴿رَبُّنَا إِنْكَ

(1) سورة آل عمران، الآية: ١٤٠.

من تدخل النار فقد أخزته وما للظالمين من أنصار﴿^(١)﴾، ﴿فَأَذْنَ مُؤْذَنٌ بِيْنَهُمْ أَن لعنة الله على الظالمين﴾^(٢)، ﴿وَلَا يَرِدُ الظالمين إِلَّا خساراً﴾^(٣).

الظالم ينال مقت الله وغضبه، ومأواه النار لا نصير له ولا مؤيد، بل الكل يتبرأ منه، وعليه لعنة الله. مما يجعله في خانة من يصيبهم الخسران المبين في الآخرة والدنيا. وإذا كان الظلم في هذه الخانة فما ذلك إلا لأنه يشكل خطراً كبيراً في المجتمع، وأول ذلك أنه يخالف القرار الإلهي بتكرير الإنسان المستخلف في الأرض.

وإذا كان الظالمون دعاة باطل وفساد وجند جهل وتحلّف، لأنهم لا يقوون على العرش إلا في هكذا مجتمع، فإن نداء الله تعالى للبشر عبر الرسالات السماوية مع الأنبياء والرسل صلوات الله عليهم كان من أجل مقاومة الظلم، وإحقاق الحق، ونشر العدالة.

ولذلك وبعد عصور فساد وأمبراطوريات متسلطة جاء الإسلام ليصحح المعادلة لصالح الإنسان المستخلف في الأرض، فغدا «بحق ثورة التحرر والتقدم في كل بلد وصلت إليه

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٩٢.

(٢) سورة الأعراف، الآية: ٤٤.

(٣) سورة الإسراء، الآية: ٨٢.

دعوته، وأصبح صرخة المظلوم في وجه الظالم، وميزان الحق في وجه الباطل، ونور العلم والثقافة في وجه الجهل والتخلف^(١).

إنَّ الظالم عاصٍ ، والطاغية مفسد ، لكنَّ الله تعالى لا يحب العصاة والمفسدين الذين يزرون عون المنكر حيث حلوا ، ولهذا كان الأمر للمؤمنين الآمرين بالمعروف أن يقاوموا المنكر وأهله ، وأن يقاوموا الطغيان تلبية لأمر الله دون خوف أو جزع .

تُستفاد ضرورة مقاومة الطغيان والظلم من حكاية موسى عليه السلام مع فرعون ، حيث جاء الأمر : «أذهب إلى فرعون إنَّه طغى * قال : رب آشرح لي صدري * ويسِّر لي أمري * وأحلل عقدة من لسانِي * ينقِّلوا قولي * وآجعل لي وزيرًا من أهلي * هارون أخي * آشدَّ به أزري»^(٢) .

إنه خطاب مفاجيء لموسى عليه السلام لكنه قبله بكل ثبات والتزام ، فحتى هذا النداء لم يكن موسى عليه السلام «يعلم أنه متذبذب لهذه المهمة الضخمة . . . وإنَّه ليعرف من هو فرعون ؛ فقد رُبِّي في قصره وشهد طغيانه وجبروتة وشاهد ما لاقاه قومه من عذاب على يده .

(١) السحراني ، د. أسعد ، الاستبداد والاستعمار ، بيروت ، دار النفايس ، ط ٢ ، سنة ١٤٠٧ هـ - ١٩٨٧ م ، ص ١٧ .

(٢) سورة طه ، الآيات ، ٢٤ - ٣١ .

قال: رب اشرح لي صدري... عرف موسى رضا ربِهِ الكامل عليه وعرف المهمة المكلَّف بها فسأله وطلب منه العون على مواجهة هذه المهمة العسيرة وأن يكفل له الاستقامة على طريق الرسالة.. طلب أن يشرح صدره، وانشراح الصدر يحول مشقة التكليف إلى متعة للذيدة وطلب كذلك أن يسّر له أمره وتيسير الله لعباده هو ضمان النجاح^(١).

ولأن مقاومة الطغيان تبدأ دعوة وإقناعاً للمظلومين بضرورة المواجهة، فقد طلب موسى عليه السلام أولاً أن يؤتى طلاقة اللسان وحسن الإبانة عمما يريد، وأن يُعطي الحجة في دعوته لكي يعلم المستهدفو من دعوته حقيقة الأمر، ولأن المهمة تحتاج إلى أعون ومساعدين، وإلى شخص أساس يصدق القول فقد طلب موسى عليه السلام من ربِه سبحانه أن يعضده ويشد أزره أخيه هارون.

تأسيساً على ما تقدم نلاحظ بأن مقاومة الطغيان والطغاة فرض وأمر لا مناص منها، ولذلك نرى موسى عليه السلام - ولنا في أنبياء الله الأسوة - رغم علمه بضعف قوته وإمكاناته قياساً مع ما يستطيع حشده فرعون من الطاقات البشرية والمادية لمقاتلة من سيناويء دعوته، لم يستفسر كيف يمكنه أن يواجه طاغية من هذا

(١) مغنية، الشيخ أحمد، خلاصة التفاسير، بيروت، المكتبة الحديثة للطباعة والنشر، بدون تاريخ، ص ٤٠٨.

الوزن؟ ولم ينافش الأمر لأن الله تعالى إذا اختار أمراً لم يكن للعباد عندها خيرة من أمرهم فيه.

كل ما فعله موسى أنه اجتهد في طلب العدة للتنفيذ، فطلب تأييد الله تعالى بالحججة واللسان البليغ، وتسهيل الأمر، وبوزير هو أخوه هارون. والأمر لموسى عليه السلام أمر ماضٍ في العباد حتى يرث الله الأرض ومن عليها بأن يقاوموا الظلم والطغيان، وما هو من حقهم فقط هو الاجتهاد في الأسلوب والإعداد للمواجهة لا للالتفاف على الأمر.

إنَّ من حقِّ الإنسان أن ينتقل في البلاد من مكان إلى آخر لتبدل أسلوب ومكان المواجهة مع الظالمين، أو للانضمام إلى فئة أخرى تسلط على الناس، لكن حقه الهروب أو السكوت عن الطغيان والظلم، ففي السكوت مخالفه لأمر الله ول فعل الأنبياء، ولمن يفعل ذلك سوء العاقبة.

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمُونَ إِنَّمَا يَعْلَمُ مَا كَانُوا بِهِ يَعْمَلُونَ قَالُوا: فِيمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ كَمَا مُسْتَضْعِفُونَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا: أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ واسِعَةً فَتَهاجِرُوا فِيهَا فَأُولَئِكَ مَا وَاهِمُ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾^(١).

فإن لم يقاوم الظلم من قبل المؤمنين فسيبقى التسلط على

(١) سورة النساء، الآية: ٩٧.

المستضعفين من الرجال والنساء والولدان الذين يناجون ربهم بأن يخرجهم من قرية ظالم أهلها. لأن الظلم ظلمات، والحرية حياة؛ لهذا لم يكن من حق المؤمن أن يسكت عن ظالم بل عليه أن يواجهه، ولهذا جاء الحكم واضحًا في قيمة مقاومة الجور والظلم وأهله في الحديث النبوي الشريف: (أفضل الجهاد كلمة عدل عند سلطان جائز) ^(١).

والله سبحانه كما مرّ في الآية الكريمة آنفة الذكر توعّد من رضخوا للظلم بأن يكون مأواهم جهنم عقاباً لهم، والعقاب يكون للعصاة، كما أنه سبحانه وتعالى أبلغ الظالمين بأنهم سيلاقون العقاب الأقسى والأشد، وديارهم إلى خراب وزوال، لأنها أُسست على غير تقوى الله واتّهامه بهديه تعالى ^(٢).

جاء البلاغ - الوعيد للظالمين في آيات عديدة منها: «فتكل بيوتهم خاوية بما ظلموا» ^(٣)، «وتلك القرى أهلتناهم لما ظلموا» ^(٤)، «إنما السبيل على الذين يظلمون الناس ويبغون في الأرض بغير الحق أولئك لهم عذاب أليم» ^(٥).

إن الظلم وقمع الحريات بالاستبداد والتسلط يعد في رأس

(١) رواه أبو داود والترمذى والنسائى وابن ماجه وأحمد بن حنبل.

(٢) سورة النمل، الآية: ٥٢.

(٣) سورة الكهف، الآية: ٥٩.

(٤) سورة الشورى، الآية: ٤٢.

المخاطر التي تهدّد المجتمعات والدول حيث تزرع فيها الانقسام والتخاذل والفساد والجهل ، وتسد أبواب التقدّم .

إنّ قوّة البلدان بشعوبها ويمدّى ما تتمتع به من الحرية لتساهم إيجابياً في صنع نهضتها ومستقبل أوطانها ، لأنّ المشارك في رسم القرار يتمتع بقوّة التنفيذ ، والمُؤمن بالأهداف المرسومة التي تعبّر عن طموحاته وأماله تراه يستصغر العظائم ، وتراه مستعداً للتضحية مهما غلت الأثمان .

إنّ القائد الذي يتمتع بمواهب وخصال تؤهله لأداء دوره القيادي ، له دور هام في تقدّم بلده وتحرّره ونهضته ، لكنّ الحاكم يبقى فرداً ، قوته وقدرته على تنفيذ ما يخطط وما يقرّ مرهونتان بمدى التجاوب الشعبي ، والالتفاف ، الشعبي حول ما يطرح . والأمثلة من تاريخ الأمم والشعوب كثيرة ، فالشعوب عندما تمنع ثقتها للقيادة تقدم دعماً أين منه تأييد الدول وترسانات السلاح ، فالشعب الجزائري مثلًا الذي دفع في ثورته التحريرية للوطن من الاستعمار الفرنسي ما يزيد على مليون شهيد ، شكل بإيمانه بتحرير بلده أعظم قوة هزمت جيشاً غازياً ، ولم يكن عند الشعب الجزائري ثمة حسابات شخصية أو ذاتية للأفراد .

إنّ الشعب إذا وعى الأهداف وآمن بها ، وكانت له الحرية وحقوق المشاركة في صنع مستقبله وفق ما يختار عبر قنوات الشورى وممارسة الديمقراطية السليمة ، تهون عليه التضحيات حتى لو كانت بالنفس . لكنّ الشعب المظلوم الممنوع من

المشاركة في التخطيط واتخاذ القرار، والذي يمارس عليه الاضطهاد والقمع، فإنه يتحول إما إلى اللامبالاة، أو إلى العمل على مناؤة حكامه، والعمل للتخلص منهم، وضعاف النفوس منه يستسلمون ويعتمدون التزلف وإشعال البخور للحاكم، وبذلك تتبعثر الطاقات، ويسود التنازع فتفشل الأمة، وتذهب ريحها ويتمكن منها أعداؤها.

إن الظلم والاستبداد مصدراً للشر والرذيلة في المجتمع، ومنبعاً لفرقة والتفتت لوحدة الوطن والأمة، لأن الطياع البشرية للأدميين لا ينافيها ويضايقها أمر أكثر من الظلم. كما أن الحرية مصدر العزة والوحدة، ومنبع العطاء والتضحية، ولأن مخاطر الظلم في هذا المستوى، لذلك كله تردد الله تعالى الظالمين بسوء المصير على فعلهم.

الظلم والاستبداد معصية، ومن اعتمدتها يكون قد أصغى لأهوائه ولوساوس الشهوة، ووساويس شياطين الإنس والجن، فالاستبداد هو سبب الفتور في الأمم، وهو العامل المشتّت لطاقاتها الذي يؤدي إلى هوانها على الأعداء.

لقد حرم الله تعالى الظلم، وعلم المؤمنين من خلال الأمر لموسى عليه السلام ﴿أَذْهِبْ إِلَى فَرْعَوْنَ إِنْهُ طَغَى﴾^(١) ضرورة مقاومة الظلم والطغيان والاستبداد، لأن القطرة التي فطر الله

(١) سورة طه، الآية: ٢٤.

سبحانه عليها الناس، والكرامة التي أعطاها لهم لا تتقبلان
الخضوع إلا لله رب العالمين، ولذلك جاء في صفات المؤمنين
بأنهم لا يخافون في الله لومة لائم.

الظلم والاستبداد رذيلة وجريمة، وقل فيهما ما شئت، لأن
ما من تمرد ولا انقسام ولا خيانات أو غدر يكثر إلا في ظل
الاستبداد. ولقد وُقِّع عبد الرحمن الكواكبي في قوله: «الاستبداد
يتصرف في أكثر الأموال الطبيعية والأخلاق الحسنة فيضعفها، أو
يفسدها، أو يمحوها، فيجعل الإنسان يكفر بنعم مولاه؛ لأنه لم
يملكها حق الملك ليحمده عليها حق الحمد، ويجعله حاقداً
على قومه لأنهم عون الاستبداد عليه، وقادراً حب وطنه لأنه غير
آمن على الاستقرار ويعود لو انتقل منه». أسيير الاستبداد لا
يملك شيئاً ليحرص على حفظه؛ لأنه لا يملك مالاً غير معرض
للسلب ولا شرفاً غير معرض للإهانة»^(١).

إن الطمأنينة والسكن للمواطن لا يكونان مع الاستبداد، وإن
التفكير والإبداع لا يتعايشان مع الاستبداد، وإن التقدم والازدهار
خصمان لا بل عدوان للاستبداد، لذلك يعد الاستبداد شرّ بلاء
تبتلى به الأمم، ولذلك كان البلاغ الإلهي: «وَمَا لِلظالِمِينَ مِنْ

(١) الكواكبي، عبد الرحمن، طائع الاستبداد ومصارع الاستبعاد، تقديم د. أسعد السحمراني، بيروت، دار الفائز، ط ١، ١٤٠٤ هـ - ١٩٨٤ م، ص ٨٤.

أنصار^(١)، ولذلك ما عرف مجتمع الظلم والاستبداد إلا كان ذلك إيذاناً بخرابه، وفساد أحواله، فالرجل المستبد في بيته تفكك أسرته وتنتهي منها الألفة والمودة، والحاكم المستبد ينفض من حوله الشعب وبناصبه العداء، ويستعمل معه المكيدة والمكر والنفاق... إلخ.

نصل إلى القول: «لو كان الاستبداد رجلاً وأراد أن يحتسب ويتنسب لقال: أنا الشر، وأبي الظلم، وأمي الإساءة، وأخي الغدر، وأختي المسكنة، وعمي الضرر، وخالي الذلة، وابني الفقر، وبتي البطالة، ووطني الخراب، وعشيرتي الجهالة»^(٢).

﴿آذهب إلى فرعون إنْه طغى﴾، نداء وأمر من الله تعالى إلى كل مؤمن، فالإيمان الحق يأبى الظلم، ومرضاه الله تعالى تستلزم مقاومة الطغيان والاستبداد، والطبيعة الأدبية المكرمة ترفض الذلة والهوان، فالمؤمن عزيز الجانب أبي النفس، لذلك كان على المؤمنين واجب مقاومة المنكر والظلم والاستبداد تحقيقاً لعزّة المؤمنين، وتنفيذًا لأمر الله، وإنقاذاً لعباد الله من براثن الظالم المستبد الذي يتلذذ عندما يتالم الآخرون، ويفرح عندما يحزنون، وتأخذه العزة بالإثم عندما يحاول واحد من الناس لفت نظره لخطأ أو مسألة.

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٩٢.

(٢) الكواكب، عبد الرحمن، م. س، ص ٧١

فالظالم طاغية مستبد ما دخل قرية أو منطقة إلا أذلّ أهلها، وما اشتم رائحة كلمة حرة إلا حاربها، وما وجد رذيلة إلا عمل على نشرها، وما وجد أثراً لعالم حرّ مؤمن إلا عمل على إلغائه، فالظالم عدو الحرية والعلم والعدالة، حليف الاستبداد والجهل والتخلف.

إنّ مقاومة الظلم والاستبداد فرض وأمر إلهي، وضرورة وطنية واجتماعية، ومن سكت عن ظلم، أو داهن ظالماً ونافقه ساكتاً عن فعله فقد عصى الله تعالى. ولنقرأ معاً قول الله تعالى الذي جاء مقرّعاً المتخاذلين عن مقاومة الظلم والظالمين بسؤال إنكاري: «وَمَا لَكُمْ لَا تَقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعِفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْأَنْوَافِ الَّذِينَ يَتَوَلَّنَّ بَرِّيَّةً أَخْرَجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرِيرَةِ الظَّالِمَ أَهْلَهَا وَاجْعَلْنَا مِنْ لَدْنِكَ وَلِيًّا وَاجْعَلْنَا مِنْ لَدْنِكَ نَصِيرًا * الَّذِينَ آتَيْنَا يَقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ فَقَاتَلُوا أُولَئِكَ الشَّيْطَانَ إِنْ كَيْدَ الشَّيْطَانَ كَانَ ضَعِيفًا»^(١).

في الآية الأولى كما قلنا سؤال يقترن بالإنكار لفعل التقصير، وفي الآية الثانية تحديد واضح بأن الناس قسمان: مؤمنون متزمون طائعون لله تعالى يقاتلون من أجل إعلاء راية الحق والعدالة ويقاومون كل منكر، وقسم آخر دخلوا في خانة من

(١) سورة النساء، الآية: ٧٥، ٧٦.

كفروا وعصوا، وقتال هؤلاء يكون من أجل السيطرة والاستبداد وإعاقة الطواغيت على ظلمهم وهؤلاء أمة الشيطان وأتباعه.

نخلص إلى القول إنَّ الظلم حرام، مهلك لصاحبه ومضر بالمجتمع، ولذلك كانت طاعة الظالمين ومعاونتهم في فعلهم جريمة وشرّ الجريمة، ويكتفي أن يعلم الظالمون ما توعدهم به الله تعالى : ﴿مَا لِلظالِمِينَ مِنْ حُمْيَمٍ وَلَا شَفِيعٌ يَطْعَمُ﴾^(١). وفي الحديث النبوي الشريف عن أبي موسى رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : (إِنَّ اللَّهَ لِيَمْلِي لِلظَّالَمِ إِذَا أَخْذَهُ لَمْ يَفْلَهْهُ)^(٢). ثمقرأ : (وَكَذَلِكَ أَخْذَ رَبَّكَ إِذَا أَخْذَ الْقَرِي وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ)^(٣).

Dar An NAfaes

(١) سورة غافر، الآية : ١٨ .

(٢) رواه البخاري ومسلم . ليملأ : أي ليمهله ولكن لم يفلته ؛ أي لم يخلصه من العذاب .

(٣) سورة هود، الآية : ١٠٢ .

الحاكم والعدالة والظلم

«روى الإمام أحمد في المسند عن عبد الله بن عمرو، أن النبي ﷺ قال: (لا يحل لثلاثة يكونون بفلاة من الأرض إلا أمروا عليهم أحدهم). فأوجب ﷺ تأمير الواحد في الاجتماع القليل العارض في السفر، تبيها بذلك على سائر أنواع الاجتماع»^(١).

الحاكم ضرورة في المجتمع لأن الله تعالى يزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن، بهذا قال كل من كتبوا في الفقه السياسي من المفكرين العرب والمسلمين من الماوري إلى «أبو على الفراء» إلى ابن خلدون في مقدمته وغيرهم كثيرون، لكن الجميع شددوا على صفة لا بد أن تتوافر في الحاكم ألا وهي العدالة.

انطلاقاً من الآية الكريمة: «وأمرت لأعدل بينكم»^(٢)،

(١) ابن تيمية، أحمد، السياسة الشرعية في إصلاح الراعي والرعية، بيروت، دار الكتاب العربي، بدون تاريخ، ص ١٦٩.

(٢) سورة الشورى، الآية: ١٥.

يتبين لكل من أراد أن هذا الأمر للنبي ﷺ أمر للمؤمنين على امتداد المكان والزمان ليلتزموه، وذلك لفضل العدل وأهميته، والآية قاعدة شرعية من خرج عنها عصى الله تعالى لأنها أمر إلهي من واجب العباد أن يلتزموه. ومن هذا القبيل كان الحديث الشريف: (أحب الخلق إلى الله إمام عادل، وأبغضهم إليه إمام جائز)^(١).

ولكي يستطيع الحاكم ممارسة العدالة في ممارسته السلطة لا بد من أن تتوافر فيه صفات عديدة كالإسلام والبلوغ والعقل والعلم، لكن أهمها للحاكم العادل هي تلك التي حددتها الآيات البينات في القرآن الكريم. وفيها:

﴿وقال الملك آتني به أستخلصه لنفسي فلما كلمه قال: إنك اليوم لدينا مكين أمين * قال: أجعلني على خزائن الأرض إني حفيظ عليم﴾^(٢)، ﴿قالت إحداهما يا أبتي آستأجره إن خير من آستأجرت القوي الأمين﴾^(٣).

القوة، التمكّن، الأمانة، الحفظ صفات حددتها الآية الآنفة الذكر لمن سيتم اختياره لتولي الشؤون العامة لتأكد لنا بأن هذه الصفات إن توافرت سهلت الأمور، وحصلت الطمأنينة، وامتنع العداوة والتظلم بين الناس.

(١) رواه الإمام أحمد بن حنبل في مسنده.

(٢) سورة يوسف، الآيات: ٥٤، ٥٥.

(٣) سورة القصص، الآية: ٢٦.

فعزيز مصر بعد أن ثبت عنده ما يتمتع به يوسف عليه السلام من الإخلاص والأمانة والبعد عن الفساد، وكيف لا يتوصل العزيز إلى هذه القناعة، ويوسف عليه السلام يستعرض ويتمتع بال التجاوب مع امرأة هو في بيتها راودته عن نفسها. لذلك كبرت الثقة بيوسف عليه السلام وظهرت أمانته، والأمانة هي العدل في التعامل فمكنته العزيز من الأمر على خزاناته ومقدرات دولته وسلطانه، لكن ما جاء على لسان يوسف عليه السلام عطفاً على أنه «حفظ» يرعى الأمانات ويؤديها إلى أصحابها هو أنه ذو علم، وعلمه علم نبي يعرف معنى الأمانة والعدل. وكأنني بهذه الآية تؤكد على خصلة لا بد من توافرها في الحاكم ألا وهي العلم، والعلم بأحكام ممارسة السلطان، والعدل خاصةً، كما حددتها الله تعالى.

أما ابنتنا شعيب عليه السلام فقد أعجبتهم قوة موسى عليه السلام، وأمانته وعدله في علاقته مع سواه، فلفت نظرهما أمر هو حاجة بيتهما لشخص بهذا المستوى يتولى أمره، ولذلك قالت إحدى البتين لأبيها بأن يستأجره لصفتين هامتين تتوافران فيه: القوة والأمانة. ولا يخفى على أحد أهمية ذلك في الحاكم لأن القوة تمكنه من ضبط العصاة، وإيصال الحق لأصحابه، والدفاع عن الوطن والأمة، والأمانة تحفظ قوة البلاد وقدراتها وتوصيل الحقوق إلى أهلها.

لكن قوة الحاكم مستمدّة بالأصل من قوة شعبه، والتافق

حوله، لذلك فالحاكم القوي هو من يكون لِيَنَا في معاملة شعبه، لأن الله تعالى يحب الرفق في الأمر كله، ويأمر صاحب الولاية والسلطة: «وَأَخْفُضْ جَنَاحَكَ لِمَنْ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ»^(١)، أمّا مقابل ذلك فيطلب من الحاكم أن يكون قوياً صلباً في مقارعة الأعداء، يزرع الخوف والهلع في صفوفهم ليستطيع بذلك حفظ بلاده والدفاع عنها.

فالحاكم القوي الشخصية حقاً هو الذي يرعبه أعداء وطنه لا الذي يرعبه أبناء شعبه. وهو الذي يطيعه الشعب حباً له، واقتداء به، لا عن خوف من بطشه واتقاءً لشره.

الحاكم القوي الشخصية: هو الذي لا يخاف من النقد والمعارضة حتى لو كان نقداً مغرضًا طالما كان واثقاً من نفسه سائراً على الحق»^(٢).

إن الإنسان وهو يخط هذه الكلمات لا بد له من أن يتذكر الفاروق عمر رضي الله عنه، الذي قيل فيه إن شياطين الجن تفرّ من الشعاب التي يمرّ فيها، ومع ذلك اشتهر في كتب السير: إنه عندما تولى الخلافة وخطب بالناس ومن جملة ما طالبهم به أن يقوموا ما يرونـه معوجاً فيه، فإذا بإعرابي من آخر المسجد - عرف من هو الفاروق - يرفع سيفه في وجه عمر رضي الله عنه ويقول

(١) سورة الشعراء، الآية: ٢١٥.

(٢) الفنجري، أحمد شوقي، الحرية السياسية أولاً، الكويت، دار القلم، ط ١، سنة ١٩٧٣، ص ٥٤.

له: «والله يا عمر لو رأينا فيك اعوجاجاً لقومناه بحد هذا السيف».

يحتاج تقويم الحكم وتسديد خطاه وقراراته إلى اعتماد مبدأ الشورى، فهو السبيل إلى عدم الانفراد بالسلطة، وإذا كانت القرارات في نهاية الأمر تصدر عن الحاكم الأول، لكن ذلك لا يلغي أن المشاورة أمر ضروري، فهو يضيف عقلاً إلى عقله، وعلماً إلى علمه، خاصة إذا كان المستشارون من أهل التقوى والعلم والرأي السديد والوطنية الصادقة.

لقد حضَّ الإسلام على الشورى فكانت إحدى سور القرآن بهذا الإسم، وعدت الشورى فيها من صفات المؤمنين، كما أن الأمر جاء للنبي ﷺ ليشاور أصحابه من أجل أن يثبت هذه القاعدة، لا لأنَّه يحتاج إلى ما يملون وهو رسول الذي لا ينطق عن الهوى.

فالمعلوم من الشرع بالضرورة أن «أهم ما يجب على الإمام في كل ما لا نصَّ فيه عن الله ورسوله، ولا إجماعاً صحيحاً يحتاج به، أو ما فيه نص اجتهادي غير قطعي، ولا سيما أمور السياسة وال الحرب المبنية على أساس المصلحة العامة، وكذا طرق تنفيذ النصوص في هذه الأمور إذ هي تختلف باختلاف الزمان والمكان. فهو ليس حاكماً مطلقاً كما يتوهם الكثيرون بل مقيد بأدلة الكتاب والستة وسيرة الخلفاء الراشدين العامة وبالمشاورة»^(١).

(١) رضا، الشيخ محمد رشيد، الخلافة، القاهرة، دار الزهراء للإعلام ↗

﴿وشاورهم في الأمر﴾ «سبب هذا الأمر للرسول ﷺ بالمشاورة في أمر الأمة، جعله قاعدة شرعية لمصالحها العامة، فإن هذه المصالح كثيرة الشعب والفروع، ولا يمكن تحديدها، وتختلف باختلاف الزمان والمكان، فلا يمكن تقييدها، وقد ذهب بعض علماء السلف إلى أن النبي ﷺ كان غنياً عن المشاورة فلولا إرادة جعلها قاعدة شرعية لما أمر الله بها»^(١).

يجب على الرعية، وأهل الرأي والخبرة، أن يقولوا الحقيقة غير منقوصة عندما يُستشارون، أو حتى عندما يُسألون أو يتصدرون لطرح الآراء والموافق، فإن الله تعالى يأمر بعدم تلبيس الحق بالباطل ومن يفعل ذلك يكون قد عصى الله تعالى، وبذلك يعرض نفسه لنقضه سبحانه وتعالى. «ولَا تلبسو النجق بالباطل ونكتموا الحق وأنتم تعلمون»^(٢).

والأمة من واجبها أن تسهر جمِيعاً على تطبيق النظام العادل، وأن تشهر كلمة العدل في وجه الحاكم الجائر المستبد، لأن سكوتها عنه، سيجعل البلاء يعم، وعندها لن يسلم أحد من براثن الطاغية الظالم. وفي إطار الحضّ على مقاومة الظلم وطلب العدل من خلال نقد الحاكم، ومعارضة أفعاله المشينة،

→ العربي، سنة ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨ م، ص ٣٨.

(١) المرجع السابق.

(٢) سورة البقرة، الآية: ٤٢.

وهذا حق معطى للمواطنين من أفراد الأمة، جاء الحديث النبوى الشريف يرعب من خطورة التقصير في هذا الباب: (إذا عجزت أمري عن أن تقول للظالم يا ظالم فقد تُوَدَّع منها)^(١).

مهما كان الحاكم طاغية مستبدًا لن يصل إلى مستوى فرعون، الذي كان قد وصل به الأمر إلى حد القول للناس: «أنا ربكم الأعلى»، ومع ذلك ولأهمية الشورى وضرورتها من أجل حشد الطاقات للمواجهة، فقد قبل فرعون الطاغية أن يشاور قومه ويستمع لرأيهم في أمر موسى عليه السلام وأخيه هارون.

فرعون مارس الشورى وهذا بین في الآيات التالية: ﴿ قال الملاً من قوم فرعون إِنَّ هذَا لساحِرٌ عَلِيمٌ * يَرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ * قَالُوا أَرْجِهِ وَأَخِيهِ وَأَرْسِلْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ * يَأْتُوكُمْ بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ﴾^(٢).

قال الملاً بأن موسى عليه السلام يريد أن يقتل الناس حول دعوته، وأن يرفضوا فعل فرعون واستبداده، وبذلك يتزعزع الملك والحكم من فرعون، ولما سمع من قومه هذا الكلام توجه إليهم بسؤاله مستشيرًا، مستفسرًا، عمّا يجب فعله لمواجهة الموقف. فكانت إشارتهم بأن لا يتوجه لموسى عليه السلام بقتل أو أذى ولا لأخيه بل أن يؤجل ذلك حتى تكون الظروف مؤاتية، لأن

(١) رواه أحمد بن حنبل وصيغته في المستند: «إذا رأيت أمري لا يقولون للظالم منهم . . .».

(٢) سورة الأعراف، الآيات ١٠٩، ١١٠، ١١١، ١١٢.

قتلاً عشوائياً أو عدواً، سيجلب غضب جمهور الناس في المملكة، والغضب مذهب لملك فرعون بسرعة أكثر من دعوة موسى عليه السلام.

وكان رأيهم أن يرسل فرعون أعاوانه في نواحي مملكته ليحضروا له السحرة الأقواء، وأن يباهـي بهم ما يأتي به موسى عليه السلام من معجزات، وذلك لتشويه صورته والتـشويش عليه، فسمع فرعون الرأي بعد المشورة وفعل ما أشير به عليه.

إن الإشارات التي وردت في مثل قصة فرعون عن الشورى التي يمارسها الحاكم مع رعيته، وصولاً إلى قرار أكثر دقة، ولا اختيار أسلم للمواقف، إنما أريد بها أن تكون حالة تعليمية تأخذ منها الشعوب على مختلف مسارات المسؤوليات ومواقعها المنهاج والعبرة، لكي تتحقق الفلاح، ولـكي تحسن اختيار ما يحقـق لها تقدـمها ونهضتها وسعادتها. ففرعون الذي اشتهر بتفرده وغطرسته، اضطـر لممارسة الشورى لأنـه وجد فيها سلـاحـاً فعالـاً في ترشـيد الموقف، تمـهـيداً لاتخـاذ قـرار مـبني على موافـقة جـمـاعـية، لأنـ ذلك يـحقق هـدـفاً هـاماً أـلا وـهو جـدـية من استـشـيرـوا في اـشتـراكـهم من أـجل تنـفيـذ ما اـتفـقـ علىـه.

أما بلقيس التي كانت تقود قومها وليس لهم دين موحـى به من الله تعالى، فجاءـهم كتاب سليمـان عليه السلام يدعـوهـم فيه **«بـسم الله الرحمن الرحيم»**، فقد سارـعت هذه المرأة إلى قـومـها تـمارـسـ الشـورـىـ، وـتـطلـبـ منـهـمـ أنـ يـمـدوـهاـ بالـرأـيـ الـذـيـ يـجـدونـهـ

مناسباً، فجاء خطابها كما نصت عليه الآية الكريمة: ﴿يَا أَيُّهَا^(١)
الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي مَا كُنْتَ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّى تَشَهِّدُونَ﴾.

إن النماذج التي وردت في القرآن الكريم عن فرعون وبليقيس وسواهما، ما هي إلا إشارات للحاكم المؤمن بأنه إذا كان هؤلاء الكفرا قد استشاروا، فلماذا أنت لا تفعل ذلك؟ وإذا كان أمر المؤمنين شوري بينهم، فلماذا تعطل الأمر وتستفرد بالرأي والقرار؟ وإذا كان النبي ﷺ قد مارس الشوري مع الصحابة، وهو غني عن ذلك - لكن ليثبت قاعدة الشوري بين أحكام الإسلام - فلماذا لا يكون للجميع برسول الله ﷺ الأسوة الحسنة كما هو مطلوب أصلاً؟ .

وإذا كان الإسلام شرعاً قد حذنه الله تعالى، لكن تنفيذ هذا الشرع وامضاء أحكامه واستنباط الأحكام في مسائل لم ترد نصوص فيها مسألة فوضت لعلماء الأمة وخبرائها، لذا كانت الشوري أحد أبرز أسس ممارسة الحكم عند المسلمين. فالشوري تحقق سلامه القرار، وثبتت قاعدة الحرية في التعبير والموقف لأفراد الأمة، بينما الانفراد بالأمر يجعل القرارات عرضة للأهواء والمصالح، ويؤدي إلى قمع الحريات وانتفاء العدل مما ينافي الفطرة البشرية، ويناقض الأحكام الإلهية التي تأمر بتكريم الإنسان وبالعدل.

(١) سورة النمل، الآية: ٣٢.

وإذا كانت طاعة الحاكم وأولي الأمر مطلوبة، فالسؤال أي حاكم؟ وأي أولو أمر؟ يقول الله تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولَئِكُمْ هُنَّ الْمُنْكَرُ﴾^(١)، يتضح من هذه الآية الكريمة أن الطاعة مطلوبة أولاً لله تعالى ولرسوله ﷺ، ومن ثم لـ﴿أُولَئِكُمْ هُنَّ الْمُنْكَرُ﴾، ولفظة «منكم» تقييد بما لا يرقى إليه الشك أن أولي الأمر هم من أفراد الأمة، توافرت فيهم عوامل ومؤهلات ، فتم اختيارهم بعد شورى بالبيعة . أمّا إذا كان الحكام متسطلين يستقوون بالدخليل أو بالمرتزقة على أبناء أمتهم وشعبهم ، فهو لاء لا تحق لهم الطاعة لأن لفظة «منكم» لا تنطبق عليهم .

ويُستفاد من تلمس مدلول الآية الكريمة من الإشارة إلى طاعة الله تعالى وطاعة الرسول ﷺ بأن الحاكم ليس له طاعة إلا إذا التزم ما أمر به الله تعالى وسنة رسوله ﷺ ، وإنما فلا طاعة لمخلوق - حاكماً كان أو غير ذلك - مع معصية الخالق سبحانه . وبهذا خطب أبو بكر رضي الله عنه يوم استخلافه : «أعينوني ما أطع الله فيكم» .

الأمة تختر الحاكم عبر أهل الرأي فيها ، وبعد ذلك لها عليه حقوق كثيرة منها العدل والشورى والتزام شرع الله ، وإنما حق لها الثورة عليه وسحب البيعة منه . فالسلطان للأمة والسيادة لشرع الله ، هاتان هما قاعدتا الحكم في الإسلام .

(١) سورة النساء ، الآية : ٥٩ .

يقول في ذلك السيد محمد رشيد رضا: «إن ل الإسلام اشتراعاً مأذوناً به من الله تعالى، وأنه مفوض إلى الأمة يقره أهل العلم والرأي، والزعامه فيها بالشوري بينهم... وأن السلطة في الحقيقة للأمة، فإذا أمكن استفتاؤها في أمر وأجمعـت عليه فلا مندوحة عنه... وليس لل الخليفة أن ينقض إجماعها، ولا أن يخالفـه ولا أن يخالفـ نوابها وممثليـها من أهل الحلـ والعقد أيضاً»^(١).

نستفيد من درس ابني آدم قابيل وهابيل، ومن جريمة القتل التي نفذـها قابيل بأخـيه دون وجهـ حقـ، أن النـفوس تضعفـ عندما تثورـ فيها شـهوةـ السـلطةـ، أوـ المـصلـحةـ، أوـ الـهـوـيـ أوـ الـحـسـدـ...ـ إـلـخـ، وـهـذـهـ الثـورـةـ الـنـفـسـيـةـ الـخـاطـئـةـ لاـ يـكـيـجـ جـاحـحـاـ غـيـرـ ضـوـابـطـ الشـرـيـعـةـ وـأـحـكـامـهاـ، لأنـ مـنـ آـمـنـ وـأـقـرـ بـأنـ السـيـادـةـ لـشـرـعـ اللهـ تـعـالـىـ لاـ يـجـدـ مـشـقةـ فـيـ الـلتـزـامـ بـأـحـكـامـ الشـرـعـ الـحـنـيفـ سـوـاءـ كـانـ حـاكـماـ أوـ مـحـكـومـاـ.

تأسـيـساـ عـلـىـ ماـ تـقـدـمـ نـقـولـ: إنـ الـحـاكـمـ كـيـ يـصـغـيـ إـلـىـ أـبـنـاءـ أـمـتـهـ، وـيـحـترـمـ رـأـيـهـمـ، وـيـرـجـعـ إـلـيـهـمـ مـسـتـشـيرـاـ لـاـ بدـ أـنـ يـفـهـمـ أـوـلـاـ أـنـ وـاجـبـهـ الـلـيـنـ وـالـرـفـقـ مـعـ الـمـؤـمـنـينـ، وـالـشـدـةـ وـالـغـلـظـةـ مـعـ الـكـافـرـيـنـ وـالـأـعـدـاءـ؛ـ هـذـاـ مـاـ نـسـتـفـيـدـهـ مـنـ الـآـيـةـ الـكـرـيمـةـ:ـ (ـيـاـ أـيـهـاـ الـذـيـنـ آـمـنـواـ مـنـ يـرـتـدـ مـنـكـمـ عـنـ دـيـنـهـ فـسـوـفـ يـأـتـيـ اللـهـ بـقـوـمـ يـجـبـهـ

(١) رـضاـ، الشـيـخـ مـحـمـدـ رـشـيدـ، الـخـلـافـةـ، مـ.ـ سـ، صـ ١٠٤ـ.

ويحبوه أذلة على المؤمنين أعزّة على الكافرين يجاهدون في سبيل الله ولا يخافون لومة لائم ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله واسع عليم^(١).

هؤلاء الحكماء الذين يعتمدون الرحمة واللين مع المؤمنين، والقوة والشدة في مواجهة الكافرين والأعداء، وفي مقارعة الباطل ومقاومة الفساد، من واجبهم أن يصغوا لنصح الرعية إذا وجدوا فيه ما يذكر بقواعد وأحكام الشريعة، أو ما يلفت النظر إلى أمر فيه مصلحة عامة، ومن واجب الشعب ألا يدخل على قائد الأمة بالرأي والمشورة والنصح لثلا يعم الفساد بسبب غياب التناصح، تقصيرًا من قبل الرعية، وعدم تقبل من قبل الراعي، ولذلك أتى كلام الله مقررًا من اعتمدوا أسلوب عدم التناصح في الآية الكريمة: «كَانُوا لَا يَتَابُونَ عَنْ مُنْكَرٍ تَعْلَمُونَ لَبِسْ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ»^(٢).

«ليس العيب... في أن يخطيء الحاكم ولكن العيب كل العيب في أن يمنع الناس من تنبيهه إلى الخطأ... وإرشاده إلى الصواب... فتراكيم الغلطة إلى جانب الغلطة... ويستفحـل الأمر ويختلـ كـيـانـ الدـولـةـ... وتـؤـديـ الأـخـطـاءـ فيـ مـجـمـوعـهاـ إـلـىـ انـهـيـارـ الـبـنـاءـ أوـ إـلـىـ نـكـسـةـ كـبـيرـةـ»^(٣).

(١) سورة المائدة، الآية: ٥٤.

(٢) سورة المائدة، الآية: ٧٩.

(٣) الفنجري، أحمد شوقي، الحرية السياسية أولاً، م. س، ص ٢٢.

فالحاكم لا بد من أن يتصرف على أنه إنسان يصيب ويخطئ، لذلك فحق النقد والتصحيح حق مشروع للأمة، بكل فنانها وأفرادها، ولعل الحادثة المشهورة عن الفاروق عمر رضي الله عنه يوم كان يتحدث في الناس عن المعالاة في المهر، فقاطعته امرأة مذكورة بآية قرآنية لا يتناسب معها ما يقول، فإذا به وهو أستاذ في أسلوب الحكم العادل يجيب معلناً على الملا: «لقد أصابت امرأة وأخطأ عمر»، وهذا الأمر لا ينتقص من عدل عمر ولا من مكانته رضي الله عنه.

وإذا كان من خصائص شخصية الحكم القوي الأمين، العادل الناجح في مهمته، أن يتقبل النقد والنصيحة من أي مواطن أتى، وأن يتراجع عن الخطأ وينزف منه إلى رحاب الصواب الذي هو ضالته ويعيشه، فإنه من واجب الأمة كلها حكاماً ومحكومين، ورؤساء ومرؤوسين، أن تعلق راية الحق وأن ترفض مزج الحق بالباطل، وأن تحارب الباطل والمنكر دون خوف ولا تردد، لأن المؤمن لا يخاف في الله لومة لائم.

لقد نهى الله تعالى عن ذلك في الآية الكريمة: ﴿وَلَا تلبسو
الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾^(١). وإذا كان من المحتمل أن يسكت فرد أو نفر عن منكر رأوه، وإذا كان من المحتمل أن يتبع نفر أهواهم فيحابون ظالماً أو حاكماً،

(١) سورة البقرة، الآية: ٤٢.

ويدلسون له من أجل أن يظفروا ببعض فتات موائده، فإن مثل هذا متوقع ويمكن مواجهته، فمواجهة الظالم وأعوانه أمر لا بد منه.

لكن الأمر الخطير الذي يهدّد المجتمع بأكمله، والذي يؤذن بالفساد والخراب، هو أن تسكت الأمة بأكملها عن فساد المفسد، وظلم الظالم، حينها لن يكون لمثل هذه الأمة إلا غضب الله وعدايه، وفي الدنيا سلام على صلاحها وتقدمها ونهضتها. وهذا ما حذر منه النبي ﷺ في الحديث الشريف: (إذا عجزت أمتي عن أن تقول للظالم يا ظالم فقد توَّع منها) ^(١).

يحمل لنا التاريخ موقفاً يستحق أن يتخذ قدوة في التعامل مع موضوع الحاكم الظالم! وهذا الموقف هو من الحسن البصري، وهو واحد من جيل التابعين اتصف بالصلاح والجرأة. والحادية كما يرويها ابن خلkan أنه: «لما ولّي عمر بن هبيرة الفزارى العراق وأضيفت إليه خراسان، وذلك في أيام يزيد بن عبد الملك، استدعى الحسن البصري ومحمد بن سيرين والشعبي وذلك سنة ١٠٣ هـ فقال لهم:

إنّ يزيد خليفة الله استخلفه على عباده، وأخذ عليهم ميثاقهم بطاعته، وأخذ عهداًنا بالسمع والطاعة، وقد ولّاني ما

(١) رواه أحمد بن حنبل والصيغة عنده: «إذا رأيت أمتي لا يقولون للظلم منهم»

ترون، فيكتب إلى بالأمر من أمره، فأقلده ما تقلده من ذلك الأمر، فما ترون؟ .

فقال ابن سيرين والشعبي قولاً فيه تقية.

فقال ابن هبيرة: ما تقول يا حسن؟ .

فقال: يا ابن هبيرة خف الله في يزيد، ولا تخف يزيد في الله؛ إنَّ الله يمنعك من يزيد، وإنْ يزيد لا يمنعك من الله، وأوشك أن يبعث إليك ملكاً فيزيلك عن سريرك ويخرجك من سعة قصرك إلى ضيق قبر، ثم لا ينجيك إلا عملك .

يا ابن هبيرة: إنْ تعصَ الله فإنما جعل الله هذا السلطان ناصراً لدین الله وعباده، فلا تركبَ دین الله وعباده بسلطان الله، فإنه لا طاعة لمخلوقٍ في «عاصمة الحال»^(۱).

هذا الموقف وهذه النصيحة من الحسن البصري لابن هبيرة مما النموذج الصالح الذي يجب أن يواجه به الناس حكامهم، ففي ذلك ينجو الحاكم من عذاب سيلاقيه على ظلمه، وفي ذلك تخلص لعباد الله من الجور والسلطان .

وإذا كان من واجب الرعية - خاصة أهل الرأي - أن يتخدوا مثل موقف الحسن البصري، فإنه يحسن بالحاكم أن يتخذ مثل

(۱) ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج ۱، تحقيق محمد محبي الدين عبد الحميد، القاهرة، مكتبة النهضة المصرية، سنة ۱۳۶۷ هـ - ۱۹۴۸ م، ص

موقف عمر رضي الله عنه في قوله: أصابت امرأة وأخطأ عمر.

يضيف الإسلام أمراً آخر في تبنيه الحاكم هو أن تفويض الأمر وإسناده من قبل الحاكم لغير أهله ومن يستطيعون القيام به يحمله مسؤولية ذلك. وإذا كان الوصية العامة ﴿إِنَّ خَيْرَ مِنْ استأجرت القوي الأمين﴾، فإن هذه القاعدة ترتب على الحاكم واجباً هو أن لا يعمل على توريث السلطة لأهله، طمعاً في تكريس عائلة تتوارث السلطة والحكم، فالمستحق تعطى له مقاييس الأمور سواء كان من عائلة الحاكم أو من غيرها.

نأخذ الشاهد على هذه المسألة مما حصل مع إبراهيم عليه السلام، وهو الخليل الذي اجتباه الله تعالى واصطفاه، ومع ذلك علمنا الله سبحانه معه بأنه لا إرثة في شأن السلطة، وإنما الاختيار للقوى الأمين الذي يستطيع القيام بأعباء الأمر كائناً من كان، جاء في الآية الكريمة التي خاطب فيها الله تعالى إبراهيم عليه السلام: ﴿قَالَ: إِنِّي جَاعَلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا، قَالَ: وَمَنْ ذَرَيْتَ؟، قَالَ: لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾^(١).

ويأتي الحديث الشريف ليوضح المدلول نفسه، وفيه: «من ولني من أمور الناس شيئاً فولني عليهم أحداً محاباة، أو لقرابة، وهو يعلم أن منهم من هو أصلح منه، فليتبواً مقعده من النار». «فيجب على كل من ولني شيئاً من أمر المسلمين، ... أن

(1) سورة البقرة، الآية: ١٢٤.

يستعمل فيما تحت يده في كل موضع، أصلح من يقدر عليه، ولا يقدم الرجل لكونه طلب الولاية، أو سبق في الطلب»^(١).

إن مسؤولية الإمارة أو تولي السلطة مسؤولية هامة ودقيقة، لذلك يجب ألا تعطى لغير أهلها ومستحقتها، لأن حاكماً أحبه شعبه واختار - قدر الإمكان - أعوااناً قادرين للأمر يستطيع النهوض ببلده، وتحقيق إنجازات عظيمة، لأن حركته تكون حركة شعب بأكمله، لكن حاكماً لا يحفظ لمواطنيه حرمة ولا عهداً، ويختار بطانة سوء فإنه حاكم فاسد مفسد سيترك الفساد والذلة والتخلف يسود في بلده، وسيساعد فعله على تقليل الأحرار وزيادة العبيد، وسيكون عهده إيذاناً بضرب القيم وانتشار الفساد والمنكر... إلخ.

Dar An NAfaes

وإذا أردنا أن نحدد بعض واجبات الحاكم في أمتنا العربية على ضوء ما سبق من أساس نابعة من الإسلام، فإنه يمكننا طرح هذه العناوين والقواعد التي طرحتها الدكتور أحمد شوقي الفنجرى، محدداً بها واجبات الحاكم، يقول:

«الحاكم المسلم لا يملك إلا أن يكون ديمقراطياً... لأن الإسلام والاستبداد لا يلتقيان... وعليه أن يختار بين أحدهما. فلكي يصبح الحكم شرعاً في الإسلام ولكي يتزم الشعب نحوه بالطاعة».

(١) ابن تيمية، أحمد، م. س، ص ١٣.

- فلا بد للحاكم المسلم أن يصل بالبيعة الحرة من الرعية؛ أي بالانتخاب.
- وأن يتقيّد بالشوري؛ أي بالمجالس النيابية.
- وأن يلتزم بنتيجة الشوري؛ أي يحترم رأي الأغلبية.
- وأن يرفض المدح الكذاب الذي يضلّل الحكم.
- ويقبل النصيحة والرأي؛ أي المعارضة والنقد.
- وأن يحترم المعارضة ويمكنها من تأدية رسالتها.
- وأن يقيم العدل والمساواة مع معارضيه قبل أنصاره... . ومع البعيد قبل القريب ومع العامة قبل الخاصة.
- وهو محاسب أمام الله والرعية حتى عن مليء ومسكنه وطعامه وحياته الخاصة.
- وهو مسؤول عن اختيار مجلسه واحترام مجالسيه.
- ومسؤول عن اختيار وزرائه وولاته وأعوانه، مسؤول عن مراقبة أعمالهم.
- والحاكم المسلم مسؤول عن إيصال الحقوق إلى كل مواطن من رعاياه في البيوت والحقول والعمل حتى يتفرغوا للإنتاج والعمل.
- وعليه أن يسهل للرعاية مقابلته لرفع ظلامتهم.
- وعليه أن يحل مشاكلهم قبل أن يطالبوه بها... . ويعرف حاجات

مواطنيه قبل أن يفصحوا عنها»^(١).

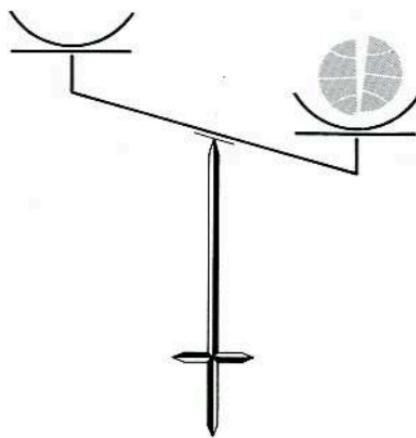
هذه قواعد عامة تتحقق درجة رفيعة من الثقة بين الحكماء والمحكومين، وبها ينفذ الشعب قرارات الحكماء بالحب والطاعة لا بالخوف والترهيب، وبها يصبح أبناء الأمة جمِيعاً فريق عمل واحد، كل على ثغره، وفي موقع يؤدي ما يستطيع، ويقوم بواجبه على أحسن ما يمكن.

Dar An NAfaes

(١) الفنجري، د. أحمد شوقي، الحرية السياسية في الإسلام، الكويت، دار القلم، ط١، سنة ١٣٩٣ هـ - ١٩٧٣ م، ص ١٣٨ ، ١٣٩.

الحقوق والحریات العامة في الإسلام

Dar An NAfaes



الحقوق والحرىات العامة في الإسلام

تنافست الفلسفات، وتبارى علماء القانون صائفو الدساتير في الحديث عن أفضل ما يرون مناسباً لتحقيق الحرية للإنسان، وحفظ حقوقه، ومنع التعدي عليه، وما زالت القضية الشغل الشاغل للمشتغلين بالشئون الثقافية والاجتماعية والسياسية وستبقى ما دام يعيش على ظهر الأرض إنسان.

وإذا كان للإنسان أهواء ومصالح، فإنه من المسلم به أن أي تنظير في هذا الباب لن يكون مبراً من فكروية واضعيه، ومصالحهم أو مصالح أممهم، لذلك يكون الحل الأفضل في الاستناد إلى ما حدّده الله تعالى، لأنّه سبحانه لا يريد سوى الخير لعباده.

إنّ الحديث في باب حقوق الإنسان، أو في مسألة الحريات العامة، انطلاقاً من التشريع الإسلامي ، لا بد وأن يسبقه الحديث عن موقع الإنسان في الإسلام ، قياساً مع موقع المخلوقات الأخرى .

الإنسان هو خليفة الله تعالى : ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾^(١)، وهو المخلوق الذي سخر له الله تعالى ما في البر والبحر، وأعطاه تكريماً يجعله في المرتبة الأولى ، والمكانة الرفيعة بالنسبة لسائر المخلوقات ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ﴾^(٢)، فوق ذلك كله خصه بنعمة العقل ، وبنعمة بعثه الأنبياء والرسل عليهم السلام ليحملوا له الهدى ودين الحق ، ولليوصلوا له أنوار المعرفة والرشاد ، وينقذوه من مهاوي الجهل والضلال .

لذلك فإن حقوق الإنسان في الإسلام تقوم في الأصل على هذا المعيار الأساسي ، معيار الاستخلاف للإنسان في الأرض ، ومعيار الإنسان الذي أعطى التكريم بقرار إلهي لا أحد يستطيع ردّه ، أو تعديله من المخلوقات ، بل عليهم التعامل معه كما هو .

من أجل حماية كرامة الإنسان وتحقيق مصلحته ، جاء الإسلام الحنيف يحمل معه تفاصيل عديدة تشريعية في الكيفيات والأحكام الالزمة من أجل حفظ حرمات الإنسان ، ومنع الأذى والظلم عنه من أي جهة أتى .

فالإسلام يحرّم مخالفـة أوامر الله والإتيـان بما نهـى عنه فـذلك إثم ، ويحرـم الظلـم والعـدوـان عـلـى النـاس مـن بعضـهم بـعـضاً ، كـما

(١) سورة البقرة ، الآية : ٣٠ .

(٢) سورة الإسراء ، الآية : ٧٠ .

أنه يحرّم ممارسة الجرائم الاجتماعية التي تؤدي بالمجتمع إلى الهلاك والفساد.

جاء قول الله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبُّكَ الْفَوَاحِشُ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالإِثْمُ وَالْبَغْيُ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾^(١)، «فَاللهُ جَلَّ شَانَهُ يَنْهَا عَنِ الْفَوَاحِشِ»، وهي الجرائم الاجتماعية: من قتل بغير حق، وزنا، وسرقة، كما ينهى عن الظلم، والاعتداء على الحرمات الخاصة، وعن الإثم وهو مخالفة ما يأمر به الله المؤمنين في علاقة بعضهم ببعض، محافظة على توادهم وتعاونهم، وإضعاف الحقد والكرابية من نفوسهم»^(٢).

والعنوان الأساسي للحقوق في الإسلام هو ما جاء في الحديث القديسي: «إِنَّ اللَّهَ حَرَمَ الظُّلْمَ عَلَى نَفْسِهِ وَجَعَلَهُ بَيْنَكُمْ مَحْرَماً فَلَا تَظَالِمُوا»^(٣).

ولعل الحادثة المشهورة التي حصلت بين الفاروق عمر رضي الله عنه، وواليه على مصر عمرو بن العاص، تعطينا فكرة واضحة عما يعطيه الإسلام للإنسان من حقوق في المجتمع، سواء كان هذا المواطن مسلماً أو من أهل الكتاب.

(١) سورة الأعراف، الآية: ٣٣.

(٢) البهبي، د. محمد، حقوق الإنسان في القرآن في صلة الفرد بالجماعة، م. س، ص ٧٩.

(٣) رواه مسلم.

تحمل سير الخلفاء أن شاباً قبطياً مصرياً قصد الخليفة الفاروق، وشكى له أنه كان في سباق على فرسه مع ابن عمرو بن العاص، ولما تفوق القبطي وفرسه في السباق، ما كان من ابن عمرو بن العاص إلا أن ثار، وشتم القبطي وضربه قائلاً له: «كيف تجرأت على ابن الأكرمين؟». أمام هذه الواقعه أنزل الخليفة القبطي بضيافته، وأرسل لعمرو بن العاص طالباً منه أن يحضر إليه مع ابنيه. ولما حضرا وفي جمع من الناس أعطى درة للقطبي وقال له: «قم واضرب ابن الأكرمين»، وبعد إعطاء الحق لأهله، والاقتراض للقطبي من ابن الوالي، أطلق الفاروق صريحته في وجه عمرو بن العاص صرخة دخلت التاريخ لتصبح قاعدة وحكمة يتسلح بها كل من ينشدون الحرية والعدالة وهي مقالته: «متى استبدلتم الناس بـDer Arafat ولدتهم أمها them أحراراً».

تبدأ حكاية حقوق الإنسان أول ما تبدأ من حرية الاعتقاد، حيث إن الله تعالى وهو رب الناس، خالقهم ومالكهم، بين لهم سبحانه طريقي الشكر والكفر، وترك لهم أن يختاروا سبيل الإيمان أو الشرك، لأن محاسبة الإنسان في اليوم الآخر تستوجب أن تكون له حرية الاختيار، رغم أن فطرة الله التي فطر عليها الناس هي فطرة الإيمان بوحدانية سبحانه، وإسلام الوجه والأمر له سبحانه.

وفي باب حرية العقيدة يخاطبنا الله تعالى: «وقل الحق من

ربكم فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر^(١)، قوله تعالى: ﴿لَا إِكْرَاهُ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيْرِ﴾^(٢).

أعطيت حرية الاختيار للإنسان العاقل المحاسب، إذ لا حججة له على الله تعالى، فقد أتاه الأنبياء والرسل عليهم السلام بالبلاغ والشرع، وووهبه الله تعالى عقلاً يميز به الأمور، لأنه لو اكره على الكفر - مثلاً - لسقط عنه العقاب، وإنما تركت له الخيرة والحرية وعليه تبعات ما اختاره.

من هنا كانت دعوة الأنبياء إنذاراً وتبيعاً، ولم تأت في باب الإكراه والإلزام القسري ويتبين ذلك من الخطاب للنبي ﷺ: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مَذَكَّرٌ * لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُسِيْطِرٍ﴾^(٣)، ﴿وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِعَجَّارٍ﴾^(٤).

Dar An NAfaes

فالله تعالى الخالق الذي يبدّل الأرض غير الأرض، والسماء غير السماء، ويحوّل قوانين الكون وستنه كيف شاء سبحانه، ليس بمستعدٍ عليه أن يجعل الناس جميعاً مؤمنين، لكن حرية الاختيار أعطيت لياليها الحساب بعاقبة للمتقين، وعدوان على الظالمين، وهذا بين في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمِنَ مَنْ

(١) سورة الكهف، الآية: ٢٩.

(٢) سورة البقرة، الآية: ٢٥٦.

(٣) سورة الغاشية، الآيات: ٢١، ٢٢.

(٤) سورة ق، الآية: ٤٥.

في الأرض كلهم جمِيعاً، أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا
مُؤْمِنِينَ^(١).

إِنَّ اللَّهَ سَبَحَانَهُ الْعَادِلُ الَّذِي حَرَمَ الظُّلْمَ عَلَى نَفْسِهِ «وَمَا
رَبُّكَ بِظُلْمٍ لِلْعَبْدِ»^(٢)، لَمْ يَكْتُفِ بِإِعْطَائِهِمْ حَقَّ حُرْيَةِ الاعْتِقادِ
لِيَكُونَ لَهُمُ الْحِسَابُ فِي الْيَوْمِ الْآخِرِ عَلَى أَسَاسٍ مِنْ اخْتِيَارِهِمْ
لِلإِيمَانِ أَوْ لِلْكُفَّرِ، بَلْ تَرَكَ لِلإِنْسَانِ أَنْ يَدْافِعَ عَنْ نَفْسِهِ بَيْنَ يَدِيِ
اللَّهِ كَيْ لَا تَأْتِيهِ الْعَقُوبَةُ إِلَّا بَعْدَ شَهَادَةِ أَعْضَائِهِ عَلَيْهِ، وَبَعْدَ تَسْلِيمِهِ
بَأَنَّهُ مُسْتَحْقٌ لِلْعَقُوبَةِ.

لَهُ مَا أَعْدَلُ هَذَا التَّعَامِلُ مِنْ رَبِّ عَزِيزٍ قَدِيرٍ مَعَ عِبَادٍ ضَعِيفَاءٍ
فَقَرَاءٍ لَهُ سَبَحَانَهُ وَهُوَ عَالِيٌّ غَنِيٌّ عَنِ الدَّالِّمِينَ! جَاءَ فِي الْآيَةِ
الْكَرِيمَةِ: «يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تَجَادِلُ عَنْ نَفْسِهَا»^(٣). وَإِذَا كَانَتِ
النَّفْسُ قَدْ أُعْطِيَتِ فِي الْيَوْمِ الْآخِرِ حَقُّ الْجَدْلِ وَالْمَدَافِعَةِ، فَهَلْ
يَحْقِّقُ لِحَاكِمٍ أَوْ لِسُلْطَانٍ أَوْ أَيِّ مَسْؤُلٍ أَنْ يَسْلِبَ النَّاسَ هَذَا
الْحَقُّ؟ هَلْ يَحْقِّقُ لِحَاكِمٍ عَلَى أَسَاسِ هَذِهِ الْآيَةِ أَنْ يَحَاكِمَ النَّاسَ
بِهَوَاهِ وَبِالظُّنُونِ بَدْوَنَ وَقْوَافِي أَمَامِ الْقَضَاءِ، وَبِدْوَنَ أَنْ يَكُونَ لَهُمْ حَقٌّ
إِيْضَاحَ مَا تَكْنَهُ أَنفُسُهُمْ، وَإِذَا كَانَتِ النَّفْسُ قَدْ أُعْطِيَتِ حَقُّ
الْجَدْلِ بَيْنَ يَدِيِ الْعَلِيمِ الْحَكِيمِ، فَإِنَّهُ يَصْبُحُ مِنْ وَاجِبِ أَهْلِ

(١) سورة يومن، الآية: ٩٩.

(٢) سورة فصلت، الآية: ٤٦.

(٣) سورة النحل، الآية: ١١١.

السلطة أن يتّقوا الله وأن تسع صدورهم ومكاتبهم لرعايتهم يستمعون إلى شكاويمهم ومرافعاتهم.

إنّ حق التقاضي حق معطى في الإسلام لكل المقيمين مسلمين أو كتابيين، لأن التقاضي ورفع الظلم هو الإصلاح المطلوب، وهو الذي يحفظ الحرمات. «إن كل مؤمن في نزاع مع أخيه المؤمن له الحق في التقاضي... أي له الحق في أن يسمع المؤمنون شكواه وخصوصته، والدولة باعتبارها النظام المستأمن على مصالح المؤمنين هي الجهة الأولى التي يوجه إليها حق التقاضي من الأفراد في نزاعهم بعضهم مع بعض.

وحق الفرد المسلم في اللجوء إلى القضاء هو إذاً حق مطلق... أي سواء صدولي أو سارك، أورخذ أي فرد من أفراد الأمة... وللمستوطن الكتابي - الذمي - الحق في الإقامة في بلد المسلمين، والمساواة في المعاملة والوفاء بالعهود، والعهد في القضاء، وله الحق كذلك في عصمة دمه، وماله، وعرضه»^(١).

نعم فحق الإنسان الكتابي في مجتمع إسلامي أن يمارس شعائره، وله حرية معتقده، شرط أن لا يتعرض لمسلم بأذى في دينه أو عرضه، وهذا أمر مطلوب من المسلمين حيال بعضهم،

(١) البهـي، د. محمد، حقوق الإنسان في القرآن في صلة الفرد بالجماعة، م. س، ص ٨٤.

وله الأمان كمواطن على ملكيته ومتزلمه وعرضه ودمه وماليه دون أدنى تفريط أو تضييق، وله حق التقاضي أمام السلطان تماماً كما حصل من القبطي الذي تقاضى مع ابن عمرو بن العاص عند الخليفة عمر رضي الله عنه.

يتبع حق التقاضي والمجادلة عن النفس في الآخرة وفي الدنيا حق أساسى هو حق الحياة، حيث إن حق الحياة بكرامة حق ضمنه الإسلام حيث منع قتل النفس بغير حق، وكان الوعيد بأقصى أنواع العذاب لمن فعلوا ذلك، لأن قتل النفس بغير حق يجدد فعل قايبيل مع أخيه هابيل، وهذا الفعل بالقتل ظلماً يشيع سنة الإجرام والفساد، ويفتح الأبواب أمام شتى أنواع الجرائم والموبقات.

Dar An NAfaes

جاء تحريم قتل النفس قاطعاً في نصوص القرآن الكريم، حيث قول الله عز وجل: «ومن يقتل مؤمناً متعمداً فجزاؤه جهنم خالداً فيها وغضب الله عليه ولعنه وأعد له عذاباً عظيماً»^(١)، وكذلك قوله تعالى: «أنه من قتل نفساً بغير نفس أو فساد في الأرض فكأنما قتل الناس جميعاً»^(٢).

هذا التشديد في حماية حياة الإنسان أمر بديهي منسجم مع استخلاف الإنسان في الأرض ومع إعطائه التكريم الذي لم يُعطَ

(١) سورة النساء، الآية: ٩٣.

(٢) سورة المائدة، الآية: ٣٢.

غيره من المخلوقات، وما ذلك إلا لأن الحياة وديعة وأمانة لا يجوز التفريط بها، أو إلقاءها إلى التهلكة.

وجاءت الأحاديث الشريفة تشدد على الأمر، إضافة إلى الآيات البينات، وفيها أن حق الحياة للMuslim كما لغير Muslim من أهل الكتاب في مجتمع المسلمين. من هذه الأحاديث: (لزوال الدنيا أهون على الله من قتل امرئ مسلم بغير حق)^(١)، والحديث: (من قتل قتيلاً من أهل الذمة حرم الله عليه الجنة)^(٢).

وقد يسأل سائل: «لكن أليس في القصاص حياة؟». وبالتالي، كيف نمارس القصاص دون أن نقتل؟. والجواب حذّره النبي ﷺ في الحديث الشريف: (لا يحل دم امرئ مسلم إلا بإحدى ثلات: النفس بالنفس، والثيب الزاني، والتارك لدينه المفارق للجماعة)^(٣).

هذه هي الحالات التي يكون فيها القصاص بالقتل، أما أن يكون القتل للآخر لأنه يفارقنا في موقفه، أو يخالفنا الرأي، أو ينافسنا في رزق أو تجارة مما نرى من مثله في مجتمعاتنا المعاصرة، فهذا مما لا يقره دين، ولا قانون، ولا عرف، ولا

(١) رواه مسلم.

(٢) رواه النسائي.

(٣) رواه البخاري ومسلم وأبو داود والترمذى والنسائى والدارمى وأحمد بن حنبل.

قيِم... وهذا تحضُرنا الآية الكريمة: ﴿وَإِذَا الْمُؤْدَة سُئلَتْ *
بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلتْ؟﴾^(١) ونرَدَّ مرَّة ثانية بأنَّ الرجل في الجاهلية كان
يَئُدُّ بِنَتَّاً صَغِيرَةً خَوْفَ الْعَارِ بِدَسَّهَا فِي التَّرَابِ حَيَّةً، لَكِنْ يَا لَهُولِ
مَا نَرَى حِيثُ يَئُدُّ بَعْضَ أَصْحَابِ السُّلْطَانِ شَعْبًاً بِأَكْمَلِهِ، وَحِيثُ
يَفْتَكُ الظَّالِمُونَ بِالآلَافِ، لَا بِلِ الْمَلَائِينَ، دُونَمَا وَازِعُ مِنْ دِينِ أو
ضَمِيرِ!!... وَلَهُؤُلَاءِ كَانَ الْخَطَابُ إِلَهِي: ﴿إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى
الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ أُولَئِكَ لَهُمْ
عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾^(٢).

وَحْرَمَةُ الْحَيَاةِ بِتَحْرِيمِ الْقَتْلِ يَرْتَبِطُ بِهَا أَمْرٌ آخَرُ هُوَ حَقُّ كَسْبِ
الرِّزْقِ، وَلِذَلِكَ حَضَنَ الشَّرْعُ عَلَى الْعَمَلِ، وَأَنْ يَأْكُلَ الْمَرءُ مِنْ
كَسْبِ يَدِهِ، وَكَانَ التَّاكِيدُ عَلَى الْأَمْرِ مِنْ حَلَالِ سَنَةِ الْأَنْبِيَاءِ
وَالْمَرْسِلِينَ، الَّذِينَ اشْتَهَرُ كُلُّ مَنْهُمْ بِنَوْعِ مِنَ الْمَهَنِ أَوْ أَسَالِيبِ
كَسْبِ الرِّزْقِ وَتَحْصِيلِهِ.

وَحْرَيْةُ كَسْبِ الرِّزْقِ نَسْتَفِيدُهَا مِنَ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ: ﴿هُوَ الَّذِي
جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذُلْلًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ وَإِلَيْهِ
النَّشُور﴾^(٣).

وَالْحَضْنُ عَلَى كَسْبِ الرِّزْقِ نَتَعَلَّمُهُ مِنْ تِلْكَ الْحَادِثَةِ الَّتِي

(١) سورة التكوير، الآية: ٨، ٩.

(٢) سورة الشورى، الآية: ٤٢.

(٣) سورة الملك، الآية: ١٥.

حصلت زمن النبي ﷺ، حيث جاء رجل يطلب صدقة، فأمر رسول الله ﷺ أن يُعطى لهذا الرجل فأس وحبل، وأن يذهب إلى جبل قريب يحتطب، وبيع الحطب وبذلك يأكل من كده وجهده. ومثل هذه الحوادث كثيرة.

إنَّ منع الإنسان من تحصيل رزقه، ومن الكسب الحال مسألة يعقوب عليها الله تعالى، لأن ذلك تعدٍ على حق الحياة الحرة الكريمة، ومن أنواع ذلك تكديس الأموال بدل إقامة المؤسسات لتوفير مجالات للعمل، ومنها الاحتكار، أو المضاربات غير المشروعة... إلخ.

تتصح لنا هذه المسألة من حديث المرأة التي قال رسول الله ﷺ بأنها عذبت بهرتها؛ ففي الحديث: (عذبت امرأة في هرّة سجنتها حتى ماتت، فدخلت فيها النار، لا هي أطعمتها وسقتها، إذ حبسها، ولا هي تركتها تأكل من خشاش الأرض) ^(١).

وإذا كانت امرأة قد عذبت بهرة واحدة، فكيف سيكون حال من يحتكرون ويمنعون الجماعات الكثيرة من الناس من الكسب والتحصيل؟ ! .

إنَّ الخطورة في منع الناس من حرية الكسب أن ذلك يؤدي إلى إفقارهم، والإفقار عمل شيطاني يتوصى منه الشيطان وأتباعه

(١) رواه البخاري ومسلم.

فتنة الإنسان، لأن الجائع قد يأتي بأفعال تحرّمها الشرائع، ووزر فعله سيكون حكماً، وبالدرجة الأولى، على من منعه من التحصيل والكسب. فالقرء سبيل للعمل المنكر وللفحشاء هذا ما نصّت عليه الآية الكريمة: ﴿الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء والله يعذر مغفرة منه وفضلًا والله واسع عليم﴾^(١).

ولخطورة الفقر، شرع الإسلام الزكاة، والصدقة، والحق المعلوم في أموال الأغنياء للسائل والمحروم، لأنه ما من فقير يجوع أو يعرى، إلا بما تقتره أيدي الأغنياء من منع الإنفاق وكنز المال دون أداء الحقوق التي فرضها الله تعالى فيه.

وقد اشتهر في الحديث اقتران الفقر بالكفر، لأن صاحب الحاجة أربعن، فكيف ^{Dar Al-Naafis} أجماع عاري البذلة المريض الذي لا يملك ثمن دوائه، جاء في الحديث الشريف قول النبي ﷺ: (اللهم إني أعوذ بك من الكفر والفقر). فقال رجل: أعدلان. فقال: نعم)^(٢).

ويترتب على حق الكسب حق آخر للإنسان في المجتمع المسلم، هو حق الاتصال بحرية وفق القوانين المرعية، وهذا بين من خلال الآية: ﴿فامشو في مناكبها﴾^(٣). ولم توضع قيود على

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٦٨.

(٢) رواه أبو داود والنسائي.

(٣) سورة الملك، الآية: ١٥.

ذلك، وكذلك من حديث المرأة وهرتها، حيث جاء: (ولا هي تركتها تأكل من خشاش الأرض). فالاصل في الانتقال والإقامة حيث يشاء الإنسان، طبعاً مع شرط عدم القصد إلى مجتمع تشكل الإقامة فيه خطراً على دين الإنسان أو عرضه، ودون أن يكون الانتقال فراراً من زحف فهذا معصية، لأن الثبات والصمود في ثغور الأوطان ومواقع المواجهة فيها.

ومن أنواع الحرمات التي ضمنها الإسلام في مجتمعاته للمسلم ولسواه من أهل الكتاب حرمة المنزل، حيث لا يحق لأي كان أن يدخل منزلًا غير منزله قبل أن يبلغ أهله ويستأذنهم.

يقول الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بَيْوَتًا غَيْرَ بَيْوَتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا وَتَسْأَلُمُوا عَلَىٰ أَهْلِهَا فَإِنَّمَا خَيْرَ لَكُمْ لِعْلَكُمْ تَذَكَّرُونَ * إِنَّمَا تَجِدُوا فِيهَا أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّىٰ يُؤْذَنَ لَكُمْ وَإِنْ قِيلَ لَكُمْ ارْجِعُوهَا فَارْجِعُوهَا هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾^(١).

حتى إذا أذن لك أهل البيت أن تدخل، فعليك أن تدخل من الأماكن المعدة للدخول؛ أي من باب البيت رعاية للأدب وحفظاً للحرمات، ففي قول الله تعالى: ﴿وَاتُّوا الْبَيْوَتَ مِنْ أَبْوَابِهَا﴾^(٢).
أما الدخول خلسة إلى بيوت الآخرين أو عنوة، فامر محظوظ

(١) سورة النور، الآيات: ٢٧، ٢٨.

(٢) سورة البقرة، الآية: ١٨٩.

حتى لو كان إدخال النظر أو التنصت بالسمع خلسة، وإذا فعل إنسان ذلك فواجهه صاحب البيت وأدأه فحقه ساقط عقاباً له. جاء في الحديث الشريف: (أيما رجل كشف ستراً فأدخل بصره قبل أن يؤذن له فقد أتى أمراً لا يحل له أن يأتيه، ولو أن رجلاً فقا عينه بسبب ذلك لهُدْرَت) ^(١).

لقد أعطى الإسلام للإنسان حق الدفاع عن حقه وماليه وعن أرضه وعرضه، وإذا بغي عليه أحد أو حاول اغتصاب ماليه وقاتلته، فإن هو قضى كان شهيداً، وإن قُتل الباغي المعتمدي فلا إثم على المدافع.

إنَّ حق الملكية من وجوه حلال لا غش فيها، ولا عدوان، ولا احتكار، هو حتى فضائل الشريعة الإسلامية. وممَّا جاء في الحديث النبوي أن رجلاً جاء إلى الرسول ﷺ يسأله: (يا رسول الله، أرأيت إذا أراد رجل أن يأخذ مالي؟)، فقال الرسول: لا تُعطِه. قال: إذا قاتلني، قال: قاتله. قال: أرأيت إذا قتلتني، قال: فأنت شهيد. قال: أرأيت إذا قتله، قال: فهو في النار) ^(٢).

يضاف إلى ذلك حق السمعة، حيث يحرِّم الإسلام على المسلم أن يغتاب أخاه، والأمر في ذلك صريح بين وقد جاء في

(١) رواه الإمام أحمد في مسنده.

(٢) رواه مسلم.

الآلية الكريمة: ﴿وَلَا يغتب بعضاً أَيْحُبْ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلْ
لَحْمَ أَخِيهِ مِيتاً فَكَرْهَتْمُوهُ﴾^(١).

وبينهم الإسلام عن تناول الآخرين في أحاديثنا، والنيل من سمعتهم، أو توزيع التهم في حقهم، وتشويه صورتهم بغير وجه حق. وفي الحديث الشريف (إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: أَتَدْرُونَ مَا الْغَيْبَةُ؟ قَالُوا: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ). قَالَ: ذَكْرُكُ أَخَاكَ بِمَا يَكْرَهُ). قَيلَ: أَفَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ فِي أَخِي مَا أَقُولُ؟ قَالَ: إِنْ كَانَ فِي مَا تَقُولُ، فَقَدْ اغْتَبْتَهُ وَإِنْ لَمْ يَكُنْ فِيهِ مَا تَقُولُ فَقَدْ بَهَتْهُ)^(٢) [افتريت عليه الكذب].

إِنَّ من جعل أكبر همه أذى الناس باللسان واليد والفكر هو إنسان ظالم مضلل ومساعد على إفساد الناس، مهما قدم من وجوه البر، أو أدى من الفرائض والعبادات. لأن الإيمان يجب أن يكون عاصماً لصاحبـه، وأن يدفعـه إلى الكفـ عن أذى سواه. فحرمات الناس محفوظة مصانة، وإن قصر حاكم أو سلطـان في ذلك فإن الله تعالى سيقتـص من كل معتـدٍ أثيم.

وفي الحديث: (قال رسول الله ﷺ: أَتَدْرُونَ مِنْ الْمَفْلِسِ؟، قَالُوا: مِنْ لَا درْهَمَ لَهُ وَلَا مَتَاعٌ. قَالَ: إِنَّ الْمَفْلِسَ مِنْ أَمْتِي مِنْ يَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِصَلَوةٍ وَصِيَامٍ وَزَكَةً، وَقَدْ شَتَمْ هَذَا، وَقَدْ

(١) سورة الحجرات، الآية: ١٢.

(٢) رواه مسلم وأبو داود والترمذـي.

هذا، وأكل مال هذا، وسفك دم هذا، وضرب هذا، فيُعطى هذا من حسناته، وهذا من حسناته، فإن فنيت قبل أن يُقضى ما عليه أخذ من خططيتهم، فطرحت عليه، ثم طرح في النار^(١).

ومن أنواع الحرمات في الإسلام عادات الثأر، أو التمييز بين الناس أمام القضاء، أو عند وضع الحدود. فإن القاعدة في الإسلام أن كل إنسان محاسب عن أفعاله، ولا يجوز أن يعاقب إنساناً أو نعتدي عليه لمجرد أن قريباً له وجه أذى أو ضرراً لنا، فقول الله تعالى : ﴿وَلَا تَزِرْ وَازْرَةً وَزَرَ أَخْرَى﴾^(٢).

وفي باب تحميل كل إنسان تبعات عمله، يجب أن يسود العدل، فلا فرق بين حاكم ومحكوم فالكل سواء يحاسبون على ما اقترفته أيديهم ، عَنْهُمْ لَا تَحْتَاجُ مجْتَمِعًا جَاهَدَنَا اليوم أن تتعلمها على مختلف المستويات . وهذا الأمر يبيّنه ما جرى في قصة فاطمة بنت أسد المخزومية، التي سرقت وكانت فتاة جميلة، وما أهلها إلى محاولة التوسط مع رسول الله كي لا يقيم الحدّ عليها بقطع اليد، فأرسلوا له لهذه الغاية أسامة بن زيد لمكانته عَنْهُمْ لَا تَحْتَاجُ مجْتَمِعًا .

وجواباً على قول أسامة وتوسطه قال رسول الله ﷺ : (أشفع يا أسامة في حدّ من حدود الله؟).

(١) رواه مسلم.

(٢) سورة الإسراء، الآية: ١٥.

ثم خطب في الناس: (إنما هلك من كان قبلكم، إنهم كانوا
إذا سرق فيهم الشريف تركوه، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا
عليه الحد... وأيم الله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطع
محمد يدها) ...

الكل في حق الحياة سواء، والكل حين القصاص سواء،
والكل في حرمة الدم والمال والعرض سواء. فالإسلام أتى
بالعدل بين الناس، لأنهم جميعاً من آدم، وآدم من تراب،
والتمييز بينهم يكون على أساس من الآية الكريمة: «إن أكرمكم
عند الله اتقاكم»^(١).

ولأن ظهور الحقيقة غير سهل، ولأن نفوس بعض الناس
مجبولة متربيّة على الجحالة واتباع المهرى، لذلك لا يجوز محاكمة
الناس استناداً إلى الظن أو الوشایة، وهذا أمر كثُر في أيامنا هذه،
والقاعدة في الإسلام: إن الإنسان بريء حتى يثبت العكس.
ومن غير المقبول اعتبار كل الناس متهمين، فالظنون تجرّ الآثام،
وتولد الظلم وتنشر الباطل، وتفسح المجال لحكم الأهواء مما
يضر بالمجتمع، وينشر الفساد والظلم، لذلك لا بد من تحرّي
الحقيقة قبل أخذ الكلام وتصديقه مهما كان القائل موضع ثقة،
ويحضرني في هذه المناسبة قاعدة تنسب للإمام علي كرم الله
وجيهه يقول فيها: «الحق يعرف بالحق والحق لا يعرف بالرجال».

(١) سورة الحجرات، الآية: ١٣.

لهذا حذرنا الإسلام من الظن: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجتَنِبُوا كثِيرًا مِّنَ الظُّنُنِ إِنَّ بَعْضَ الظُّنُنِ إِثْمٌ﴾^(١). لماذا اجتناب الظن؟ لأن الظن لا يقدم ولا يؤخر بل يبقى في ذهن صاحبه، إن لم تدعمه الشواهد والأدلة، وإنما فلا قيمة له مصداقاً للأية الكريمة: ﴿وَإِنَّ الظُّنُنَ لَا يَغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيئًا﴾^(٢).

إن درساً كبيراً في ضرورة وضع الحق في نصايه، وتحميل المخطيء وزر فعله، نتعلم في سورة يوسف، يوم ذهب إخوته إلى مصر ولم يكونوا يعرفونه، وهو قد عرفهم وبينهم شقيقه، حيث اكتالوا من الحب طلبهم، وأوزع يوسف لأعونه بأن يضعوا وحدة الكيل في حمل شقيقه ليحتاج بها وبأنه سرق ليقيه عنده.

والإخوة الذين وحدوا الآب بالمحافظة على أخيهم خافوا الأمر، وعرضوا أن يبقى أحدهم في السجن بدل شقيق يوسف الذي وجد الصواب في حمله، فأთاهم الرفض لأن القصاص يكون للجاني ليس لسواء قريباً له أم بعيداً عنه. والجواب في الآية الكريمة على لسان يوسف عليه السلام: ﴿مَعَاذُ اللَّهُ أَنْ نَأْخُذَ إِلَّا مَنْ وَجَدْنَا مَتَاعِنَا عِنْدَهُ إِنَّا إِذَا لَظَالَمْنَا﴾^(٣).

هذه بعض من حقوق الإنسان في الإسلام، أوردتتها كي

(١) سورة الحجرات، الآية: ١٢.

(٢) سورة النجم، الآية: ٢٨.

(٣) سورة يوسف، الآية: ٧٩.

يتضح لنا، ولو بشكل موجز، أهمية ما أعطاه الله تعالى للإنسان المستخلف في الأرض من تكريم، وأنه سبحانه شرع للبشر ما فيه رعايتهم لحرمات بعضهم بعضاً، بشكل يحقق السعادة لأبناء المجتمع، وينشر العدل ويمنع الظلم والعدوان.

إنَّ ما ورد من قواعد في هذا الفصل، إنما جاء ليذكر أبناء أمتنا بضرورة وقف عمليات الاستيراد لمواد القوانين، وأبواب الدساتير التي اجتهد في وضعها قانونيون من البشر، لأن شريعة الله تعالى فيها مصلحة البشر عموماً، أمّا ما يضعه البشر فلا يخلو من الميول والأهواء، وما يفرضه المعتقد والانتماء والهوية.

Dar An NAfaes

القابلية للاستعباد

إن دراسة التاريخ واستقراءه للاطلاع على واقع أنظمة الحكم التي تعاقبت في كل أمة ودولة، ولمعرفة الظروف التي أصابت كل أمة عبر تاريخها من استعمار واحتلال وهيمنة عليها من قبل شعب آخر أو أمة أخرى، وأحياناً كان يتعاون هذا الأجنبي مع بعض أبناء الأمة نفسها، لإخضاعها؛ إن هذا الواقع عرفته معظم الأمم إن لم نقل كلها، فعمل شعوبها من أجل حريره وتحررها، وتمكن أحياناً وفشل أخرى من إزاحة الحاكم المستبد، وإخراج الاستعمار من أرضه.

لكن الأمر الخطير في حياة الشعوب والأمم أن تولد عند أفراد أو جماعات في بلد ما عقدة الدونية، بحيث يفقدون الثقة بأنفسهم، فيتقبلون سلط سواهم، ويستقبلون كل ما يرسله، وفيه مصلحته ويتوارد عنه إذلالهم، لا لشيء إلا لأنه قد غُرست في نفوسهم مشاعر الضعف والصغار، فهانت عليهم كرامتهم وعزتهم.

النفس هي مفتاح القضية فإذا أتى تولد العزة عند صاحبها،
ولا تسلم بهزيمة، أو تسلط، وإنما تكون عندها القابلية
للاستعباد وللاستعمار، وعندها لا ينفع معها شيء. لهذا أبلغنا
الله تعالى درساً هاماً إن أردنا الثورة على واقع فيه استعمار
واستعباد، وفيه تخلف وجهل إلى آخر ما هنالك، هذا الدرس هو
أن التغيير يبدأ دوماً من الذات، فهي محور القضية، ومفتاح
التقدم والتحرر والنهوض، وقد جاء ذلك في الآية الكريمة: ﴿إِنَّ
اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾^(١).

إن المستعمر المحتل لبلد، أو المستبد المستعبد لشعب
يسعى أولاً لتوليد الاستسلام والقابلية للاستعباد في النفوس، لأن
نفوساً ضعفت همتها على النضالية والشدة، واستشعرت في
داخلها الدونية، من الصعب تحريكها باتجاه أهداف سامية
تحقيق فيها الحرية والعزة، ومثل هذه النفوس ترضى إرضاء شهوة
البطن والأعضاء، ووضع دريهمات في الجيب بدليلاً عن الحرية
والكرامة. ولذلك نقول لمن أراد التحرر من الاستبداد
والاستعمار: غير نفسك تغير مسيرة التاريخ.

لا تسلم النفوس قيادها، ولا تتولد فيها قابلية الاستعمار
والاستعباد، إلا إذا ضعف إيمانها وازداد الجهل عند صاحبها،
لأن الإيمان والعلم لا يفسحان مجالاً لذلّ أو تسليم بما فيه

(١) سورة الرعد، الآية: ١١.

استعمار الوطن أو استعباد المواطن. فالمؤمن الحق لا يركع ويسجد إلا لله رب العالمين، والعالم الحق لا يتزلف بعلمه، وإنما علمه وموقعه ووعيه تدفعه كي يكون القدوة، والنموذج الأفضل في المواجهة والمجابهة، ومقارعة الظلم والعدوان.

إن احتلال البلدان أمر قد يحصل لسبب أو آخر، كما أن التسلط والاستبداد قد يُتّبع به شعب ما، لكن المهم أن لا تُحتل الإرادات، وتُستبعد فتتولد بسبب ذلك قابلية للاستعمار والاستعباد، يصبح معهما التحرر من الأمور بعيدة المنال.

بعد هذا التقديم العام نصل إلى الحديث عن واقع أمتنا العربية مع هذه الاشكالية، إشكالية «القابلية»، حيث يجب أن نقر بأن القابلية ~~للاستعمار والاستعباد~~ قد نشأت عند أفراد وجماعات من أبناء أمتنا نتيجة الانفتاح الذي حصل على مدنية أوروبا مع مطلع القرن التاسع عشر.

بعد الثورة الصناعية في أوروبا، والقفزات النوعية في عالم التقنية والآلة، والذي ترافقت معه حالة تخلف في هذا الميدان في أمتنا نتيجة عوامل عديدة، أبرزها: الحكم العثماني وما ترافق معه من سلط سياسي وتخلف مدني، ثم انفتاح أمتنا على بلاد الغرب، وذهب بعثات من شبابنا للتحصيل فاطلعت على ما اطلعت عليه من تقدم في الآلات والصناعات، فأصبح هذا النفر بالأنبهار بما عند أوروبا.

إنَّ انبهار نفر من أبناء أمتنا بما عند أوروبا من تقنية، ولدَ عندهم عقدة الدونية التي استعبدتهم، وولدت عندهم قابلية للأجنبي وسلطه، فباتوا ينقلون ما عنده دونوعي بحقيقةه، ولا دراية بكنهه. باتوا ينقلون وهم مغمضو العينين كلَّ ما عند الأجنبي من زي اللباس إلى آلات النقل، ومعدات الصناعة انتهاءً بالفکر التربوي والسياسي . . إلخ.

إنَّ الانبهار عند هذا القبيل من المتعلمين عندنا، ولد قابلية للمستعمر ساهمت في تحقيق أغراضه أكثر من مؤسسه الاستعمارية المباشرة، لذلك لا بد من إزالة هذه الغشاوة عن الأعين حتى لا نتمكن أعداءنا منا.

بات نفر من المتباهرين من أبناء أمتنا معجبين بما عند أوروبا، ينقلونه ويلتزمونه دون تمحيصه لمعرفة النافع منه من الضار، ولذلك أصبحت عقدة ما هو أجنبى قيداً على عقول هذا النفر ولباسه ومتزله وكل أشكال تصرفه.

ولنعطي مثلاً عن أشكال هذا الاستعباد من حكاية اللغة. لقد شجع الإسلام على العلم، وعلى تعلم لغات الأمم الأخرى لممارسة الدعوة بينهم، ولمعرفة ما عندهم، ولمعرفة أساليب تفكيرهم ومحططاتهم، عطفاً على الاستفادة مما تحويه ثقافتهم من علوم مفيدة، وجاء الحضن في الحديث النبوي الشريف: (من تعلم لغة قوم أمن مكرهم).

لكن ما حصل تجاوز هذه القضية إلى حد التصنيع والتتكلف، فبَتْ ترى مجالسيك - وانطلاقاً من عقدة الدونية عندهم يخاطبونك بكلام تختالله بعض الألفاظ الأجنبية، ظناً منهم أن ذلك يدلّ على مستوىهم العلمي الرفيع. وبَتْ ترى التجار يبحثون عن أسماء أجنبية لشركاتهم أو أصناف متوجاتهم، وبات المستهلك، وبِا للأسف، يهتم باسم المتجر أو اسم الشركة المنتجة وغرابته أكثر من اهتمامه بجودة البضاعة وثمنها.

ناهيك من اختيار نفر من أبناء أمتنا - بداعٍ من عقدة الدونية تجاه الأجنبي - أسماء لأبنائهم غريبة لا معنى لها ولا مدلول، فلا هي أسماء لمشاهير يؤثر في نفوس الأبناء، ولا هي أسماء تحمل معاني سامية. كل هذا يحملنا على تسمية المسألة عبودية تقيد أصحابها.

وهنالك عبودية من نوع آخر هي عبودية أزياء اللباس التي ترى نفراً من أبناء أمتنا مشدودين فيها، لما هو وافد من الأجنبي دون النظر إلى هذا الذي ومدى انسجامه وتوافقه مع شرعنا وقيمنا ومناخ بلادنا، وحتى دون الالتفات إلى هذا الذي ومدى انسجامه مع الذوق الرفيع.

ترى سيدات وفتيات، مثلاً، يتظرن فصلياً أو موسمياً مجلات الأزياء الصادرة في بلاد أوروبا وأمريكا، وفور وصولها يشترونها ويسرعون بها إلى عاملات الخياطة يطلبن منها أن يفصلن لهن الأثواب وفق ما جاء في هذه المجلات، دون النظر

إلى فقدان الحشمة والأدب في هذه الأزياء، ودون معرفة مدى مناسبتها لطبيعة البلاد، وعمل المرأة وحركتها، وسنها، ومستواها، كل ذلك يُضرب به عرض العائط ويتم الاختيار على أساس واحد هو العبودية لهذا الزي لمجرد أنه مصمم في بلد أجنبي.

ظاهرة غريبة فعلاً، أن يتخلى الإنسان عن إيمانه، وقيمه، وتراثه، وشخصيته، ويستبدلها بقيود يضعها طوعاً في كلتا يديه؛ إنها قيود استيراد ما هو أجنبي فقط لأنه أجنبي !! ..

إن قضية القابلية للاستعمار والاستعباد حصلت - كما أسلفنا - بسبب الانبهار أمام التقدم المدني عند أوروبا، فأحدثت غشاوة على بصر وبصيرة قبيل من المتعلمين في مجتمعاتنا، فجعلتهم ينقلون قيمةً ومفاهيم أو رؤية قائمة على أساس الكميات والمقادير والأرقام، وهذا ما لا يتناسب مع واقعنا الذي تقوم أسسه على قواعد فكرية، طابعها الأساسي إيماني إنساني، بداع من فعل الدين في قيام حضارتنا ونهضتنا السابقة، كما أن الطابع الإيماني الإنساني هو سمة أية نهضة مقبلة لأمتنا العربية.

هذا الاستيراد للمفاهيم الأوروبيية التي يحكمها العدد والكم، طرحت في سوق الثقافة مصطلحات دخيلة، وأشكالاً من السلوك تتعارض كلياً مع شخصيتنا القومية، ومع عالم أفكارنا وثقافتنا.

ونتج عن ذلك جنوح مادي عند عدد غير قليل من أبناء أمتنا، وسيطر الرقم عندهم على القيم، وغلبوا الشهوة والهوى على

المبادئ، وقبلوا الهوان والذل من أجل دريهمات ظنوا فيها الرفعة وعلو المقام.

وإذا كانت المقتنيات ضرورية كوسائل حياتية، لكن اعتمادها أهداً لذاتها يجعلها تستبعد أصحابها، فيصبح عبداً لها يحصلها ويجمعها ويكثر منها ليس من باب امتلاك الأسباب والوسائل، وإنما يصبح تجميع المقتنيات والمشتريات هدفاً، وهذا أمر خطير في سلب الحرية من الشعوب.

إن نظرة على ما حولنا تطلعنا كيف بات بعض الناس مستعبدين لفلسفة الاستهلاك، ولغة الأرقام التي صدرها لنا الأوروبيون والأمريكيون، لتكون شكلاً من أشكال الاستعمار الجديد مضافاً إلى الاستعمار والغزو الثقافي، الذي لم ينجحوا به إلا بعد توليد القاتيبة للأمم بشوارد.

إن هذا النفر المنبهر من أبناء أمتنا يستحق الشفقة، ويحتاج لعملية إنقاذ سريع من واقعه المتredi، واقع الاستعباد للمماديات والأرقام. هذا الاستعباد الذي فرض على بعض الناس التزامات استعبدتهم، لكنهم اختاروها طوعاً ظنّاً منهم أن الصرف بأرقام كبيرة، وشراء المقتنيات بأسعار مبالغ فيها يدلّ على التحضر والمكانة الرفيعة، وما ذلك إلا أوهام وأحلام سرعان ما تتبدّد عند انبلاج كل فجر للتقدم والمعرفة الحقة. إن الأرقام مهما كبرت لا تغني أصحابها ولا تجعلهم في مقام رفيع بين الناس، اللهم إلا المترافقين الذين يتربّون منهم ملتزمين بعض ما عندهم،

ويقتاتون من فتات موائدهم .

لينظر كل منا حوله في وضع هؤلاء المرضى ، مرضى الاستهلاك والأرقام ليراهם يصلون الليل بالنهار بذلًا للجهد ، وجريأً وراء الدر衙م ليُقال في النهاية أنهم جمعوا رقمًا هو كذا ، أو بنوا بيتأً مساحته كذا ، أو اشتروا سيارة من نوع كذا ، أو امتلكوا من العقارات ما مقداره كذا وكذا ، وتنتهي الحالة بأن تصبح قضيتهم أنهم يعيشون ليأكلوا ويستهلكوا ، ويجمعوا رقمًا من الثروة ، وأية عيشة هذه التي تشكل نيرًا يستبعد صاحبه ، وحملًا ثقيلاً يرزع تحته من مهده إلى لحده؟! .

وفي طرح سخيف تسمع الناس في المجالس يقولون : أصبحت الحياة بطابع مادي ، وفي أيامنا «من معه قرش يساوي قرشاً» ، يا للسخرية ! هل قيمة الإنسان تتحدد من كيس نقوده ، وانتفاخ جيبيه ، أو نوع سيارته ولباسه ؟ أم أن قيمة الإنسان تتبع من إيمانه ومعارفه وتضحياته ، وإيمائه وإنسانيته ؟ .

قد تكون القروش بيد من يمتلكها ويوجد بها متفقاً عند الضرورة وهذه ضرورية ، وقد تكون القروش بيد ضعاف النفوس ، فتستبعدهم ويبخلون بها عن أعز الناس حتى عن أنفسهم وتصبح هدفاً وهؤلاء عبيد فعلًا كما وصفهم الحديث النبوي الشريف : (تعس عبد الدرهم) ^(١) .

(١) رواه البخاري ، والترمذني ، وابن ماجه .

يضاف إلى أوجه القابلية للاستعباد، فلسفة التفاخر بالاستهلاك - خاصة الاستهلاك لأمور توحى بمظاهر الثراء - التي باتت موجة تحكم بسلوك نفر لا بل أنفار من شباب أمتنا، حيث ترى الطالب أو الشاب الذي ما زال على مقاعد الدراسة، أو ما زال يبحث عن عمل، يقوم بكل أساليب اللامبالاة والتهرب من المسئولية والجدية بتبذير أموال يأخذها من والديه، وللأسف يذر هذه الأموال ثمناً لسجائر لا يرضاه إلا من ماركات مشهورة وغالبية الثمن، لكي يعوض عن عقد نقص في شخصيته، أو تراه يرفض إلا أن يشتري له والده سيارة من صنف معين، يستهلك عجلاتها وكل ما فيها بتهورٍ ظناً منه أنه إذا سار بها بطريقة مزعجة تعبر عن فوضى ولا مسؤولية يكون شجاعاً أو شاباً وسيم الطلة. ناهيك من تبذير الأموال والصحة الذي تراه من بعض الشباب مقرروناً بالأدعاء والاستعلاء، حيث يجهل هؤلاء قدر نفسم فيجرون الويلات على أسرهم ومجتمعهم، كل هذا يحصل بتأثيرات الفكر التغريبي في المسلك والمفاهيم وهو يتناقض مع قيمنا وحضارتنا.

أما العقدة الكبرى فهي عقدة الشهادات، حيث باتت سوقاً للتباهي والتفاخر. وظهر في أيامنا هذه مرض عضال اسمه مرض الألقاب العلمية - خاصة الدكتوراه - فكم من شخص ارتضى اللقب لنفسه وهو لا يحمل شهادة دكتوراه، وكم من شخص صرف المال وسعى ليحصل على لقب دكتور، وعلاقته

بالعلم والبحث الذي يفترض أن يكون قد تدرّب عليه كعلاقتنا
بناء الأهرام أو قلعة بعلبك.

يا لهول الكارثة، رجال ونساء يحملون ألقاباً علمية، فإذا بها
تحملهم فتزيع أبصاراتهم وبصائرهم بسببيها، فتراهم يصططعون
لأنفسهم حالة وموقعًا وسلوكاً، برأيهم أن الشهادة واللقب
يفرضانها!! . . .

فيتوزع حملة شهادات من أبناء أمتنا بين من إذا خوطب دون
اللقب ينفر ويتضائق، وبين من إذا لم يعط امتيازات بسبب
شهادته، حمل حملة شعواء على المجتمع، وبين من يصاب
بالغرور والخيال، فيمجه المجتمع ويعزله، وبين من يصاب
بجنون العظمة فيظن أنه أبهى الأجيال في عصره أو أن ما حصله من
علم لم يسبق إليه، ولن يوقف أحد بعده إليه، وكأني بهؤلاء
المرضى يحسبون أن الأرحام توقفت عن إنجاب أمثالهم، أو إن
إنساناً مهما بلغ لا يستطيع أن يكون مثلهم، وتعمى أبصار هؤلاء
المرضى، مرضى الشهادات عن أن يقرأوا عند كبار علمائنا بعد
الحديث في كل مسألة عبارة: والله أعلم.

ويغيب عن بال مرضى الشهادات أن عظماء كثراً جاءت
عظمتهم ومكانتهم في التاريخ من عطاءاتهم، وممّا قدموه للبشرية
من معارف واكتشافات، لا من ألقاب وشهادات قد لا يمتلك
صاحبها منها إلا الاسم.

إن تسرب مرض العبودية للقب والشهادة قد ينشأ من مفاهيم خطأة في رأس صاحب الشهادة، وقد يتسرّب إليه من معاملة مميزة ممن حوله، فتصبح هذه المعاملة مع امتيازات ميكروبياً يولد عنه مرض الغرور والاستعلاء. وللأسف ترى أحياناً أباً أو أماً يخاطبون ابنهم : يا أستاذ، يا دكتور، يا مهندس . . . إلخ.

العلم باب للنهاية وعماد للتقدم ، والثقافة النابعة من قيمنا هي السبيل لتعزيز إنسانيتنا، أما الشهادات عند نفر من أبناء أمتنا فقد أصبحت مستنداً للجهل حيث يطلقُ كثيرون منهم القرطاسية بعد تخرّجهم من الجامعات.

وهناك عبارة يستخدمها الناس تدل على أن الشهادة بباب للجهل هي عبارة : هل أنهيت دراستك وتعلماك؟ . ويوم يظن المرء أنه قد انتهى من مرحلة طلب العلم يكون قد دخل طريق الجهل ، وما التخرج من الجامعة إلا فتح للباب الواسع في طلب المعرفة والبحث والاطلاع .

يجب أن نقبل مقوله: إن الشهادات باتت قيوداً وعبودية لصاحبتها، ويحضرني في هذه المناسبة حادثة طريفة هي : كنت مرة أركب في سيارة لشاب تخرج حديثاً من الجامعة بدرجة «ليسانس» في أحد شوارع بيروت ، وكان أن مررنا من أمام محل لكهربائي سيارات صديق لنا فطلبت من الشاب الذي كانت تحمله الشهادة في تلك اللحظات ، أن يوقف سيارته لنحفي الصديق الكهربائي ونطمئن عنه وعن عائلته ، وكانت المفاجأة

عندما أجابني الشاب المستبعد للشهادة بالاعتذار عن التوقف، لأن أحد من يصلحون سيارتهم عند هذا الكهربائي أستاذ في الكلية التي تخرج منها، ولا يليق أن نسلم على كهربائي ويظهر أنه صديق لنا أمامه. تأملوا معى هذه الحادثة، وهل من عبودية أشد أثراً على صاحبها من هذا الاستبعاد الذي حصل لصاحبنا بفعل شهادة حملته فسجنته؟! ..

وهنا حضرتني سمة من سمات تواضع النبي محمد ﷺ وهو من هو في الموضع والمكانة والمهمة، والذي كان يخاطب الصحابي بلال رضي الله عنه، الذي كان بالأصل عبداً مملوكاً أعتقه أبو بكر رضي الله عنه، عندما افتداه بالمال، قائلاً: (يا أخي يا بلال). فقلت والحسرة في نفسي: هل بعض حاملي الشهادات الذين استبعذنهم، أو مفتتو الأموال والمنازل الفخمة وسوى ذلك، يظنون أن الفارق الاجتماعي أو الفارق في الموضع ودرجة المعرفة بينهم وبين سائر مواطنיהם، هو كالفارق بين رسول الله ﷺ والصحابي بلال؟ حتى يستنكفوا عن مخاطبتهما بالخطاب نفسه: يا أخي؟.

لا بد من ثورة على القابلية للاستعمار والاستبعاد التي زرعتها عقدة الدونية، ومسألة الانهيار بما عند الأجنبي في نفوس قبيل من أبناء أمتنا - خاصة بعض حملة الشهادات -، ثورة تحرر هذه النفوس وتغيير ما فيها، لكي يتمكن هؤلاء جميعاً من المشاركة في مسيرة التحرر والتقدم والنهضة لأمتنا وأوطاننا، لأن

حرية الأمم ونهضتها لا يتحققها عبيد لدرهم أو وظيفة أو شهادة، وإنما يتحققها أسواء مترنون عرروا بأنهم حفظوا شيئاً وغابت عنهم أشياء، وامتلكوا ما لا يساوي شيئاً في ميزان الثروة الكونية، حيث الأرض وما عليها من ماديات لا تساوي عند الله تعالى جناح بعوضة، فكم سيمتلك عبد المال والمقتنيات من جناح البعوضة هذا؟!

ومن أنواع القابلية للاستعباد ما يقوم به بعض أصحاب الأهواء، وطالبي المنافع الذين يسارعون للتعاون مع مستعمر لوطنهم، ومغتصب لأرضهم، من أجل فُتات موائد يحصلون عليها غير مبالين بتحرر أمتهم، ولا بكرامتها. كثيرون من يتصدون للدفاع عن الأجنبي ومفاهيمه، ويعملون بحماس لتسويق أفكاره وأهدافه في الغزو الثقافي، وبذلك يقدمون الخاص على العام والشخصي على الجماعي، والآن على الأمة.

إنَّ هذا الصنف أشد ظلماً لأمته وشعبه من المستعمر نفسه، ولذلك نرى الاستعمار الأوروبي والأمريكي لاحقاً عطفاً على المغتصب الصهيوني يسعون جميعاً كي يزيدوا جيشهم من هذا الصنف الذي تولدت عنده القابلية للاستعمار.

ناهيك من أنَّ الحاكم الفرد المستبد يبحث عن هذا الصنف من ضعاف النفوس الذين يقدمون الخاص على العام، ويعملون مصالحهم الشخصية فوق مصلحة وطنهم وأمته وشعبهم، لذلك

تراهم مستعدين كي يكونوا جنوداً لمن أراد ورغب من المحتلتين .

لهذا كله يكون من واجب قوى التغيير وكافة العاملين من أجل نهضة أمتهم وتقديمها وتحررها، أن يضعوا في جملة حساباتهم للمواجهة، مواجهة هؤلاء المصلحين الذين يتقنون فنون الرياء والانتهازية لأن مجموعهم يشكل عقبة لا بد من إزاحتها .

لقد وُفق السيد عبد الرحمن الكواكبي حين سماهـ: «المتمجدون». وعرف التمجـد قائلاً: «هو أن ينال المرء جذوة نار من جهنـم كبرـاء المستـبد ليحرق بها شرف الإنسـانية. وبـتوصـيف أـجلـى: هو أن يتـقلـدـ الرجلـ سيفـاً من قـبـلـ الجـبارـ يـرهـنـ بهـ علىـ أنهـ جـلـادـ فيـ دـوـلـةـ الـاستـبـادـ»^(١).

والتمـجـدـ عنـهـ جـوابـ جـاهـزـ عـنـدـمـاـ يـواـجهـهـ أحدـ بـمـخـاطـرـ أـفـعـالـهـ فيـ مـعـاوـنةـ المـسـتـبـدـ، وـظـلـمـ النـاسـ إـرـضـاءـ لـهـ، وـجـوابـهـ أـنـ مـصـلـحـتـهـ تـسـتـلـزـمـ ذـلـكـ، وـأـنـ تـأـمـيـنـ قـوـتـ عـيـالـهـ يـتـطـلـبـ أـنـ يـحـصـلـ عـلـىـ وـظـيـفـةـ أـوـ مـالـ أـوـ تـسـهـيلـاتـ بـوـاسـطـةـ المـسـتـبـدـ، أـوـ أـنـ مـوـقـعـهـ يـتـطـلـبـ التـقـرـبـ مـنـ المـسـتـبـدـ لـكـنـ يـتـمـكـنـ مـنـ حلـ مشـكـلـاتـ بـعـضـ النـاسـ إـلـىـ آخـرـ ماـ هـنـالـكـ مـنـ تـبـرـيرـاتـ.

ويغـيبـ عـنـ بـالـ التـمـجـدـ قـانـونـ الإـسـلامـ حـيـالـ هـذـاـ الـأـمـرـ

(١) الكـواـكـبـيـ، عـبـدـ الرـحـمـنـ، مـ. سـ، صـ ٥٩ـ .

والذي يمكن تحصيله من الحديث النبوى الشريف: (إذا رأى أحد منكم منكراً فليغیره بيده، فإن لم يستطع فلسانه، فإن لم يستطع فقلبه وهذا أضعف الإيمان) ^(١).

إن مقاومة المنكر واجب شرعى، فكيف بالظلم الذى يتولد عنه كل منكر؟! وإذا كانت الحجة أن المتمجد لا يستطيع المواجهة، وليس أمامه إلا الرضوخ والتزلف، فإن الجواب لهؤلاء وارد في الحديث الشريف، بأن يقاوموا بالقلب وهذا أضعف الإيمان. أي أن يقاطعوا المستبد وصاحب المنكر، فالمقاطعة والصمت موقف بليرغ إذا ما ضعف الإنسان في المواجهة.

لكن القضية الأخطر هي ذلك التمجيد ممن يعدون أنفسهم من علية القوم، ويصنفون أنفسهم بين الخاصة، وبذلك يشكل هؤلاء المتخاذلون من أصحاب المناصب والمؤهلات، قدوة سيئة لمن أدنى منهم. وعلى هؤلاء أن يعلموا بأن مداراة السفيه مباحة للعامة، أما الخاصة فالمواجهة واجب عليهم. وإذا كانت المقاومة بالقلب مسموحة للعامة، فإن من واجب الخاصة أن يواجهوا باللسان واليد، من هنا ندرك لماذا يركز المستعمر أو المستبد على أسماء وألقاب يزينها للناس ويعلى من موقعها عندما يرى فيها خير عون له ومساعد على تسلطه ونهبه وظلمه.

بعد هذا نصل إلى شكل مختلف من أشكال «القابلية» هو

(١) رواه مسلم والترمذى وأحمد بن حنبل والنسائي.

تلك المقولات الاستسلامية للأجنبى والمستعمر وللصهيونية، ومؤداتها إنهم يملكون القوة والعدة والمؤسسات والفوذ الدولى، لذلك فإن مواجهتهم غير ممكنة، وما علينا إلا أن نتعايش معهم، وأن نسلم لهم بما يطلبون، ولذلك نرى أن عقلية الاستسلام والتخاذل وقبول الذلة والاستعمار، قد انتشرت عند نفر غير قليل من الناس، حكاماً ومحكومين، ولعلَّ من أسباب ذلك التأثر بالطروحات الفكرية والإعلامية التي يصدرونها لنا على شكل أكاذيب جحا، فيصدقها من تستوي عندهم الأنوار والظلم.

إنَّ هذه «القابلية» للاستعمار وتصديق مقوله دول كبرى بيدها الحل والربط بالمطلق لا يجوز أن تستمر، فما من قوة في الأرض إلا وإرادة الشعوب المؤمنة الحرَّة تستطيع مواجهتها، لأنَ الله تعالى ينصر المؤمنين، ويدافع عنهم إن صدقوا بما عاهدوا عليه، وإنَّ هم أعدوا العدة، فالحقُّ منتصر مهما طالت جولة الباطل.

كيف نصنع الحرية؟

الحرية تُؤخذ ولا تُعطى ، والحرية تُتنزع ولا تُمنح ، لكن
الأخذ والانتزاع يحتاجان إلى إقدام وتضحية ، فالحرية لها مهر هو
دم الشهداء ، وعرق المناضلين ، وتضحيات الأباء ، وهذا ما عبر
عنه الشاعر العربي أحمد شكري

Dar An Nafas
وللحرية الحمراء باب بكل يد مضرحة يُدقّ

صاحب المكاسب ، مستعمراً كان أم مستبداً ، لن يتنازل
عن مكاسبه وتسلطه إلا إذا اغلب على أمره ، وإذا جُرد من أسلحته
كي يستسلم فيعود بذلك الحق إلى أصحابه ، وتعود للإنسان
كرامته .

فالمعالم أن الظالم المستبد تحركه أهواؤه ومصالحه ،
ولذلك فهو غير مستعد لأن يرعى لمواطنيه حرمةً ولا عهداً ، ولا
يحب أن يسمع صيحة تحرر ، أو شكوى أو استغاثة ، بل يريد
لأفواه المظلومين أن لا تنفتح إلا للأكل والشرب والتنفس . لقد

أحسن الكواكبي عندما قال: «المستبد يتحكم في شؤون الناس بإرادته لا بإرادتهم، ويحاكمهم بهواه لا بشرعيتهم، ويعلم من نفسه أنه الغاصب المتعدي، فيضع كعب رجله على أفواه الملايين من الناس، يسدّها عن النطق بالحق والتداعي لطابتة»^(١).

إنَّ المستبد بهذه الطريقة يريد أن يجعل من الناس جسداً لا حراك فيه، بأن يتحوّلوا إلى أحيا لا يطلبون سوى ما يسدون به الرمق من مطالب البدن، ويريد أن يجعل منهم فاقدِي الكرامة، مستسلمين لأهوائه يتحرّكون كالآلات يديرها كيفما شاء.

إنَّ المستبد الذي يستعين في سلطه وممارسة قهره للناس بجيش من المتمجَّدين، وبجماعات من العلماء المدلسين، الذين يجيدون حمل المبخرة لمحابيل كل ما يقوم به المستبد وتزيينه، عطفاً على امتلاكه مرتبة مدجَّجين بالسلاح متصنفين بالقسوة والهمجية، وفوق ذلك يضاعف من أمواله ومقتنياته ليلوح بها لضعف النفوس يشتري بها ضمائرهم وكرامتهم، ويستأجرهم بها ليصبحوا سوطاً بيده يلهب به ظهر الأمة بالضرب والإرهاب. والأسلوب نفسه يعتمد المستعمر حيث لا يمكنه الاستمرار في امتلاكه وفرض سيطرته إن لم يكن له أعون وعيون وأتباع من أبناء البلاد التي يحتلها.

إنَّ انتزاع حرّيات الشعوب وحقوقها من قبل مستعمر أو

(١) الكواكبي، عبد الرحمن، م. س، ص ٣٣.

مستبد لا يتم ويطول إلا إذا تخاذل أهل الحق عن حقهم، وإنما إذا أصابهم «الوهن» الذي عرفه رسول الله ﷺ بأنه: (حب الدنيا وكراهية الموت).

لكن الإنسان المؤمن الحق لا يسكت عن ظلم أو احتلال، ولا يجبن في مواجهة مهما كلفت من ثمن لأن الإنسان في المجتمع الإسلامي عزيز النفس، فإنه يرفض أن يذلة أحد، أو يسترقه أحد، أو يهضم حقوقه أحد، أو يمنعه حريته أحد، فإن حاول أحد ذلك فله أن يقاوم، وإن قُتل فهو شهيد، والحياة الآخرة خير وأبقى»^(١).

مهما كان مهر الحرية حتى لو كان الحياة نفسها فالمؤمن لا يرضى عنها بديلاً، وما ذلك إلا لأن «الإنسان في المجتمع الإسلامي يعرف مكانته، ولا يفرط في حقوقه، حتى لا يحول نفسه من العبودية لله إلى العبودية للبشر أمثاله، فالمرء حيث يضع نفسه. أما الله عزّ وجلّ فقد حدد للمؤمنين مكانتهم»^(٢) بقوله تعالى: «وَلِلّهِ الْعَزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ»^(٣).

لماذا يمارس المستبد ظلمه؟ ولماذا يتمادي المستعمرون في مشروعه إذن؟ في الواقع لا يحصل ذلك إلا حال تخلّي المؤمن

(١) عرموش، أحمد راتب، في سبيل شباب مسلم متحرر، بيروت، دار النفايس، ط ٢، سنة ١٤٠٦ هـ - ١٩٨٦ م، ص ٨٨، ٨٩.

(٢) عرموش، أحمد راتب، م. ن. ص ٨٩.

(٣) سورة المنافقون، الآية: ٨.

عن هذا المفهوم المقاوم، وعن هذه الروح الجهادية التي يعدّ صاحبها العدة لردع العدون والظلم عنه.

فما من ظلم ولا استعمار إلا بما اقترفته أيدي الناس من استهتار في الإعداد، وتجهيز أسباب القوة والمنعنة لحفظ الأوطان والحقوق، فالحق بدون القوة ضائع لا محالة. إنه لقول محقق للكواكبي : «المستبد يتجاوز الحد لأنّه لا يرى حاجزاً، فلو رأى الظالم على جنب المظلوم سيفاً لما أقدم على الظلم»، كما قيل : الاستعداد للحرب يمنع الحرب . . . الرعية العاقلة تقيد وتحش الاستبداد بزمام تستميت دون بقائه في يدها لتأمين من بطشه، فإن سمح هزّت به الزمام، وإن صال ربطة»^(١).

إن الحرية ضرورة، ولا تستقيم حياة البشر دونها، فهي ضرورة للدين وللعقل والتفكير، وضرورة لتوفير العدل والأمان، وضرورة لرعاية العهود والحرمات. وكل استعمار أو استعباد هو تعلّق على هذه الأمور جميعاً.

يشكّل السكوت عن الحقوق، والتعاطف عنها، والجهل بها أفضل معين للمستعمرون والمستبعد لأنهما يريدان فريسة لا حراك فيها. لذا كان من واجب الشعوب أن تعد العدة كي تتحقق حريتها وعزتها وكرامتها، كي تتحقق تحرّرها وتقدمها ونهوضها. علينا أن نعلم بأن «الاستبداد عدو الحق، ونقضي العحرية،

(١) الكواكبي، عبد الرحمن، م. س، ص ٣٤.

ولا يمكن مقاومته إلا بالإعداد، فلا يفلّ الحديد إلا الحديد؛ فالظالم لا يخاف إلا الأدوات نفسها التي يستخدمها في ممارسته للظلم، وإنما فإنه سيمادي في غيّه، ويتمنّى لو أن كل الناس يتحولون إلى غنم تطيعه، وتدرّ له الرزق، فإنه من مصلحة المستبد أن يغفل الناس عن حقوقهم، فیتحکم في شؤونهم حسب هواه، وتكون قاعدة أحكامه ما تطلبه مصلحته^(١).

إن إرادة الشعوب المتحفزة للتحرّر والثأر أقوى من سلاح المستعمر، وظلم المستبد، فالإنسان المؤمن بربه تعالى، والملتزم أهداف أمته ومصلحتها، لا تقف في طريقه عقبة، ولا تثنّيه متاعب أو مصاعب عن الكفاح من أجل غياته.

وإذا ما حاولنا التأمل في واقع أمتنا العربية فإننا نجد قوة الروح الإيمانية المتأصلة في فكر النابع ومخاهمه، ونراها جليةً من خلال قيمه لأن الأرض العربية هي مهد رسالات السماء، ونجد إضافة إلى ذلك قوة البعد الحضاري والمكانة التاريخية، التي تعثرت في القرون الأخيرة، لكن مؤهلات استعادة الدور التليدي متوفّرة، إضافة إلى قوة الموقع الاستراتيجي، فأمّتنا هي عقدة الوصل بين القارات الثلاث: آسيا، وأوروبا، وأفريقيا، ولا يجب أن ننسى القوة الاقتصادية التي يتقدّمها البترول، عماد الحركة الصناعية الأساسي في العالم كله.

إن هذه القدرات والمؤهلات مضافةً إليها اليقظة الدينية،

(١) السحراني، د. أسعد، م. س، ص ٦٨.

والوعي الديني في أيامنا هذه، ومضافاً إليها التقدم الملحوظ في عدد أصحاب الاختصاصات في مختلف مجالات المعرفة، كل ذلك يؤهل أمتنا للنهوض من كبوتها، ومواجهة أعدائها للتخلص منهم، وفي مقدمة ذلك تحرير الأرض السليمة من الاحتلال الصهيوني، لكن حتى نستطيع لعب هذا الدور لاستعادة مكانتنا ودورنا الرسالي - الحضاري، لا بد لكل مواطن من أمتنا أن يجيب عن سؤالين، لا بد منهما: من أنا؟ وماذا أريد؟؛ أي ما هي هويتي؟ وما هي قضيتي؟.

لأن الهوية تعرف الإنسان بحقيقة انتماه، وما يفرضه ويرتبه عليه هذا الانتماء من واجبات وفرضيات، ومعرفة القضية تشكل الدليل الذي يستهدي به الإنسان باتجاه أهدافه التي يطمح إليها، وإنما فمن العبث أن يتحرك شعب مقاومة الاستبداد أو الاستعمار دون أن يعلم بدقة من هو؟ وما هي قضيته؟.

إن «مبني القاعدة أنه يجب، قبل مقاومة الاستبداد، تهيئة ماذا يستبدل به الاستبداد وهو أن معرفة الغاية ولو إجمالاً، شرط طبيعي للإقدام على كل عمل، لكن المعرفة الإجمالية في هذا الباب لا تكفي مطلقاً، بل لا بد من تعين المطلب تعيناً واضحاً موافقاً لرأي الكل، أو لرأي الأكثريّة»^(١).

إن معرفة الغاية والقضية أمر ضروري قبل بدء المقاومة،

(١) الكواكيبي، عبد الرحمن، م. س، ص ١٤٣.

لكن تحويل الأمر إلى رأي تبنيه الأغلبية؛ أي توليد تيار شعبي مؤمن به، حتى يتحرك الشعب بمعظمها من أجل تحقيق الغايات باندفاع وتضحية، يحتاج إلى نشر الوعي بالقضية، والعلم بحقيقة الأهداف والمقاصد، وبالإمكانات والطاقات، والتعرف على أفضل الأساليب المساعدة على الإسراع في الوصول إلى هذه الغايات.

كل ذلك لا يتحقق مع انتشار الجهل والتخلف والحمق، وإنما يحتاج إلى العلم والوعي والثقافة. لذلك نرى في حياة الأمم صراعاً دائماً بين الاستبداد والظلم والاستعمار من جهة وبين العلماء والعلم والمعرفة من جهة أخرى.

والملاحظ أنه «يسعى العلماء في نشر العلم، ويجهد المستبد في إطفاء نوره، والظرفان يتجادلان العوام. ومن هم العوام؟ هم أولئك الذين إذا جهلوا خافوا وإذا خافوا استسلموا، وهم الذين متى علموا قالوا، ومتى قالوا فعلوا»^(١).

العلم والوعي عاملان هامان في تحريك الشعوب باتجاه أهدافها، لأن الإنسان عدو ما يجهل. كما أن تصحيات الإنسان من أجل قضية تزداد كلما فهم حقيقتها وازدادت قناعته بها. لكن يبقى هناك عامل هام لا بد أن يقترن به العلم، هو عامل الإيمان. فالمؤمن بالله تعالى حق الإيمان، والمؤمن بأهدافه وحق أمته وشعبه يندفع باتجاه تحقيق الأهداف بكل تفانٍ، وينبذل الوقت

(١) الكواكبي، عبد الرحمن، م. س، ص ٥٢.

والجهد والمال والنفس من أجل ما يؤمن به، ولذلك فإن الإيمان يطرد اليأس والخوف، ويمنع التردد والتباذل من أن يقربا من الإنسان.

لكن الإيمان والعلم اللذين يرفعان درجة التضحية عن المؤمن العالم يحتاجان إلى جماعية العمل، لأن التضحيات الفردية لن تؤتي أكلها ما لم تكن في إطار حركة شعب، باتجاه تحقيق أهدافه، وإلاً كان العمل الفردي انفعالاً تضيع فيه التضحيات، ولا تقدم ساعة النصر.

الحاجة ملحة لأن نعلم أجيالنا العربية كي تصنع حريتها كيف تعمل وسط الجماعة، وكيف ينتقل الفرد فيها من الأنا إلى الآخر، ومن الفردية إلى الجماعية. وأن المستعمر والمستبد يعلمان أهمية الجماعية في تحقيق الحرية والتحرر من ظلمهما، تراهما يسعian بشتى الوسائل كي تسود سياسة: فرق تسد.

إن الوحدة هي عامل القوة الأول في أمتنا العربية، لأنها تحقق التكامل في كافة المجالات، وتجعل منها أمة قوية قادرة على صنع حريتها وتقدمها، وأن الاستعمار أدرك أهمية الوحدة، فقد سعى لزرع الانقسام والفرقة، ولرسم حدود وهمية بين الأقاليم والأقطار، لأن التجزئة تضعف إمكانات التحرر، وتضاعف مساعي التبعية للأجنبي مما يحفظ مصالح المستعمر على حساب مصلحة الأمة والشعب.

ومما يعزّز أهمية الوحدة وضرورة العمل الوحدوي، ما

نستفيده من درس وعبرة فلسطين حيث التقت الإرادة الصهيونية مع الإرادة الاستعمارية على إقامة كيان غريب على أرضها، لمنع وحدتها، وإشغالها في صراعات ومعارك تستنزف قدراتها.

ومن بين الوثائق التي تدلل على خوف الأعداء من وحدة الأمة، ما عرف بوثيقة كامبل بنزمان، نسبةً لرئيس وزراء بريطانيا يومها، والتي قدمت إلى مؤتمر لندن الاستعماري عام ١٩٠٧ وممّا جاء فيها:

«إن إقامة حاجز بشري قوي وغريب على الجسر البري الذي يربط أوروبا بالعالم القديم، ويربطها معاً بالبحر الأبيض المتوسط، بحيث يشكل في هذه المنطقة وعلى مقربة من قناة السويس قوة عدوة لشعب المنطقة وصديقة للدول الأوروبية ومصالحها هو التنفيذ العملي العاجل للوسائل وأسباب المقترحة».

وجاء فيها: «هناك خطر مهدّد يكمن في البحر المتوسط بالذات، باعتباره همزة الوصل بين الشرق والغرب، ويعيش في شواطئه الجنوبية والشرقية بصفة خاصة شعب واحد توافر له وحدة التاريخ والدين واللغة وكل مقومات التجمع والروابط، ذلك فضلاً عن نزعاته الثورية وثرواته الطبيعية الكبيرة، فماذا تكون النتيجة لو نقلت هذه المنطقة الوسائل المدنية ومكتسبات الثورة الصناعية الأوروبية، وانتشر التعليم والثقافة»، «وإذا حدث ذلك فسوف تحل حتماً الضربة القاضية بالأمبراطوريات القائمة».

يتضح من هذا التقرير الاستعماري، أن الأعداء يعملون على تفتت أمتنا لإضعافها، ولعل الأمر نفسه يأتي في رأس خطط

الصهاينةاليوم، أي نشر التفتیت الإقليمي والطائفي والعرقي . . . إلخ، والعلاج لا يكون بغير العمل الوحدوي، والسعى لإيجاد الجماعة المتماسكة.

إلا أن جماعية العمل ووحدته تحتاج إلى تنظيم الطاقات في إطار مؤسسات تشكل عوامل الصمود في المواجهة، وهي بمثابة الأطر الحركية التي تحشد من خلالها الطاقات وتنظم وتسثمر خير استثمار لتحقيق الأهداف المرجوة، وفق خطط مدرورة، لأن أعداء الأمة يواجهونها بالعمل المؤسسي، والعمل المنظم، ولذلك لا يمكنها أن ترد التحدي بالفوضى والارتجال.

والعمل المنظم وبناء المؤسسات من أجل صنع الحرية والتقدم لا يمكن أن يكون بأفكار ونظريات مستوردة، وإنما بفكر أصيل نابع من حضارة أمتنا وتراثها، ومن واقع مشكلاتها وحاضرها، على أن تحدد على ضوء ذلك كله غاياتها وطموحاتها.

إن الحرية تُصنع ب الفكر أصيل، وإيمان لا يتزعزع بالله تعالى وبالأهداف، ويعلم ملتزم بأهداف الشعب وقضاياها، ويعمل منظم ومؤسسات، وبوحدة الأمة المبنية على جماعة متماسكة كالبنيان المرصوص، ويهدر يدفعه الشعب هو التضحية بكل الإمكانيات حتى بالأنفس.

إن حركة شعب وفق هذه الأسس من أجل نيل حريته، وتحقيق تحرّره ونهضته، وإرساء أسس النظام العادل في أمته، لا يقف في طريقها أحد، ولا تستطيع مواجهتها قوة غازية أو ظالمة.

الفهـرس

الصفحة	الموضوع
٥	الإهداء
٧	تقديم الناشر
١١	مقدمة
١٥	تمهيد
٢١	Dar An NAfaes العدل فريضة وضرورة
٣٤	الظلم عصيان والاستبداد جريمة
٤٦	الحاكم والعدالة والظلم
٦٥	الحقوق والحريات العامة في الإسلام
٨٥	القابلية للاستبعاد
١٠١	كيف نصنع الحرية
١١١	الفهـرس

من مَنشُورات «دارالنَّفَائِسُ» لِلْمُؤْلِف

- * مالك بن نبي مفكراً إصلاحياً.
- * الاستبداد والاستعمار وطرق مواجهتهما عند الكواكبى والإبراهيمى.
- * طبائع الاستبداد ومصارع الاستبعاد (تقديم وتحقيق).
- * الإسلام بين المذاهب والأديان.
- * سر تطور الأمم (ضبط وحواشي مع د. عدنان حسين).
- * البهائية والقاديانية.
- * التصوف منشئه ومصطلحاته.
- * تفصيل النشأتين وتحصيل السعادتين (تحقيق).
- * الماسونية نشأتها وأهدافها.
- * الأخلاق في الإسلام والفلسفة القديمة.
- * المرأة في التاريخ والشريعة.